

فتح الكريم المنان في تفسير السبع المثاني أم القرآن

تأليف

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزُّعكري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك المنان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بين القرآن امثالاً لأمر الله ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ سورة البقرة الآية ١٢٩ ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم كلام الله عز وجل ووحيه وتنزيله ونوره الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه المحفوظ بحفظ الله عز وجل له فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فحفظ الله القرآن لفظاً ومعنى بفضله تعالى حيث سخر له من أراد من عباده فحفظوا حروفه وكلماته وأحكامه ومعانيه؛ فصانه وله الحمد عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وإن الاهتمام بهذا الكتاب حفظاً وقراءة وعملاً وتدريساً واعتقاداً لمن أفضل القربات وأفضل الأعمال، وقد تنافس الناس في خدمته قديماً وحديثاً، فهنيئاً لمن جعله الله عز وجل من أهله، ففي الحديث الذي أخرجه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله أهلين وأهل القرآن هم أهل الله

وخاصته»، وهو نافع لمن كان من أهله في الدنيا بالسلامة من البدع والمحدثات والجهالات وفي الآخرة من النكبات، قال رسول الله ﷺ «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تتقدمه البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»، وفضائله كثيرة فيكفي أنه صفة لله ﷻ، وصفات الله ﷻ بالغة في الحسن كماله.

وبيان القرآن على الوجه التام هو وظيفة رسول الله ﷺ كما قال الله ﷻ ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فواجب على من أراد بيانه أن يسلك سبيل رسول الله ﷺ في العلم والعمل والاعتقاد وذلك لأن الكثير من المفسرين الذين خالفوا طريقة رسول الله ﷺ وسبيل السلف الصالحين؛ حرّفوا دلالة القرآن والسنة في كثير من المسائل الاعتقادية، وكان أسلم طريق لتفسير القرآن العظيم هو تفسير القرآن بالقرآن و تفسير القرآن بالسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ المعصوم، ثم بما صح من آثار السلف الكرام فقد علموا أسباب نزول القرآن معاينة وعلموا ناسخه ومنسوخه ونزل بلغتهم وتلقّوه عن نبيهم ثم يليهم من أخذ عنهم من التابعين لهم بإحسان؛ لأن الله ﷻ قد رضي طريق الجميع قال تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]، ثم يفسر القرآن بلغة العرب التي لم يدخلها التوليد فإن القرآن أنزله الله ﷻ بلسان عربي مبين.

ولما كان تفسير القرآن العظيم لابن كثير - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - أنفس ما أُلّف في هذا الباب إذ جَمَعَ بين الاختصار والإيضاح والبيان فقد رأيت أن أضع مقدمته مع مقدمتي لنفاستها حيث قال **رحمته الله**: (الحمد لله

الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ

الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فِيمَا يُنزِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ

الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكْتُوبٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ

الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً

تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ [الكهف: ١ - ٥]، وافتتح خلقه

بالحمد، فقال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ

ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعد

ذكر مال أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اللَّهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ [القصص: ٧٠]، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١﴾ [سبأ: ١].

فله الحمد في الأولى والآخرة، أي في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله، كما يقول المصلي: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»؛ ولهذا يُلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلهمون النفس، أي يسبحونه ويمجدونه عدد أنفاسهم؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالي مننه ودوام إحسانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩١﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخْرُجْ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾ [يونس: ٩١-٩٢].

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنبى الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ

الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾
 [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ، وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَلِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [القلم: ٤٤ - ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، قال مجاهد: يعني: الإنس والجن، فهو -صلوات الله وسلامه عليه- رسول الله إلى جميع الثقليين: الإنس والجن، مبلغا لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نديهم إلى تفهمه، فقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى ﴿كُنْتُ أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَتَذَكَّرُوا أَيْتِيهِ وَيَسْتَدْكُرُوا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧] .

فدم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا -أيها المسلمون- أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦ - ١٧] ، ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسئول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجهل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمته الله: (كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن)، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»؛ يعني: السنة، والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدلل الإمام الشافعي رحمته الله وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟»، قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟»، قال: بسنة رسول الله، قال: «فإن لم تجد؟»، قال: أجتهد برأبي، قال: ف ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول

رسول الله لما يرضي رسول الله»، وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر في موضعه.

قلت: بل حديث معل لا يثبت، ففيه تلاميذ معاذ رضي الله عنه مجهولون.

قال: وحيثئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله -يعني ابن مسعود -: (والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته)، وقال الأعمش أيضا، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: (حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بها فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا).

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس؛ ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن وبركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل».

وقال ابن جرير: (حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم قال قال عبد الله -يعني ابن مسعود-: (نعم ترجمان القرآن ابن عباس)، ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: (نعم الترجمان للقرآن ابن عباس)، ثم رواه عن بندار، عن جعفر بن عون، عن الأعمش به كذلك) اهـ.

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود: أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده ابن عباس ستا وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟.

وقال الأعمش عن أبي وائل: (استخلف عليُّ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة- وفي رواية: سورة النور- ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والدَّيلم لأسلموا).

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان

ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أهبه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف

عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُذِّبُوا وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُذِّبُوا رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُذِّبُوا قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضَعَّفَ القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم، فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضا، فإن صَحَّحَ غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا

فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بها ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب.

قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد: كان ابن عباس إذا سئل عن الآية في القرآن قال به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فإن لم يكن اجتهد برأيه.

فصل

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: (عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها).

وقال ابن جرير: (حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله، ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به).

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافا فيحكيها أقوالا وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة؟ فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير رحمته الله حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي^(١)، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار»، وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي، من طرق، عن سفيان الثوري به، ورواه أبو داود، عن مسدد، عن أبي عوانة، عن عبد الأعلى به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهكذا رواه ابن جرير -أيضا- عن يحيى بن طلحة اليربوعي، عن شريك، عن عبد الأعلى، به مرفوعا، ولكن رواه محمد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن ابن عباس، فوقفه، وعن محمد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس من قوله، فالله أعلم.

(١) ضعفه أحمد.

وقال ابن جرير: حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبري، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا سهيل أخو حزم^(١)، حدثنا أبو عمران الجوني، عن جنذب رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ».

وقد روى هذا الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطعي، وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل.

وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ»؛ أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم، وهكذا سمي الله القذفة كاذبين، فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم.

(١) ضعيف.

ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي معمر^(١)، قال: قال أبو بكر الصديق **صلى الله عليه وسلم**: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي^(١)؛ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿ وَفَكَهَتْ وَأَبَا ﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أيُّ سماء تظلني، وأيُّ أرض تقلني؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم، منقطع .

وقال أبو عبيد أيضا: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿ وَفَكَهَتْ وَأَبَا ﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا هو التكلف يا عمر .

وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب **صلى الله عليه وسلم** وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿ وَفَكَهَتْ وَأَبَا ﴾ فقال: ما الأبُّ؟ ثم قال: إن هذا هو التكلف، فما عليك ألا تدريه .

(١) لم يسمع من أبي بكر .

وهذا كله محمول على أنهما **رضي الله عنهما** إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتا من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَبْتْنَا فِيهَا جَبًّا ۖ وَعَنْبًا وَقَضَبًا﴾ [عبس: ٢٧ - ٢٨].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليّة، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها، إسناده صحيح.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ حَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

وقال أيضا-يعني ابن جرير-: حدثني يعقوب -يعني ابن إبراهيم- حدثنا ابن عليّة، عن مهدي بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أخرج عليك إن كنت مسلما إلا ما قمت عني، أو قال: أن تجالسني.

وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً .

وقال الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن .

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، قال: سألت رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء، يعني: عكرمة .

وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع .

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع .

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح^(١)، عن الليث، عن هشام بن عروة، قال: ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط .

(١) ضعيف .

وقال أيوب، وابن عون، وهشام الدستوائي، عن محمد بن سيرين: سألت عبدة السلماني، عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن؟ فاتق الله، وعليك بالسداد .

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده .
حدثنا هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه .

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر، قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله ﷻ .

وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، حدثنا عمر بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنها هو الرواية عن الله .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لُبِّيْنَهُ، لِلنَّاسِ وَلَا تَكْمُؤُنَهُ﴾ [آل عمران:

[١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، أجم يوم القيامة بلجام من نار».

فأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثنا جعفر بن محمد بن الزبير، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آياتُ تعد، علمهن إياه جبريل عليه السلام، ثم رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي، عن معن بن عيسى، عن جعفر بن خالد، عن هشام به .

فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري، قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث.

وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى، مما وقفه عليها جبريل، وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله، كما صرح بذلك ابن عباس، فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل^(١)، حدثنا سفيان عن أبي الزناد، عن الأعرج قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه:

(١) قال أبو حاتم صدوق شديد في السنة كثير الخطأ.

وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

قال ابن جرير: وقد روي نحوه في حديث في إسناده نظر:

حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي، أنبأنا ابن وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي^(١)، عن أبي صالح^(٢)، مولى أم هانئ، عن عبدالله ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله ﷻ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب».

والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما وهم في رفعه، ولعله من كلام ابن عباس، كما تقدم، اهـ.

كتبتها بطولها لحاجة الطالب إليها فضلا عن غيره ففيها بعض الضوابط والقواعد لمبتغي تفسير الكتاب العزيز.

فهذه مشاركة مني لمن سبقني من أهل الفضل في تفسير سورة الفاتحة، بما أرجو بركته وذخره لي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم،

(١) محمد بن السائب؛ متهم بالكذب.

(٢) باذام؛ ضعيف يرسل.

وقبل ذلك أستفيد فَهَمَّ كتاب ربنا تعالى وما فيه من المعاني و العلوم النافعات ثم إفادة غيري من المسلمين بما أذكره من أقوال العلماء متضمنا ما قد نقلته من الأدلة البينات والآيات الزكيات، وسورة الفاتحة كما قال ابن القيم في مدارج السالكين: قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، اهـ.

وأنا والله الذي لا إله هو من زمن وأنا في دماغ أحاول في تفسير كتاب الله العظيم وأصرفُ عنه بمشاغل وأعمال، وأسأل الله تعالى أن لا يكون حرمانا من الخير، ثم لما قطنت مكة المكرمة حرسها الله بالتوحيد، شرح الله صدري ويسر أمري فكتبت عن هداية القرآن إلى التوحيد ثم عنِّي لي أن أفسر سورة الفاتحة، وكانت لي محاضرة في مسجد السنة بسعوان عن بعض علومها وكنت راغبا حينها في تفرغها، لكن يسر الله و له الحمد و المنة والفضل هذه الكتابة، فأسأل الله أن ينفع بها الإسلام والمسلمين والحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه القدير

عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزُّعكري

في يوم الإثنين السابع من شهر ربيع الثاني

في منزلي بحي الشرايع من أحياء مكة المكرمة -حرسها الله-.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

وأول ما أشرع فيه من ذلك بعون الله العزيز تفسير قول الله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٤) أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٥) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (٦) غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴿ [الفاتحة: ١ - ٧]، هذه سورة الفاتحة وهي أعظم سورة في كتاب الله ﷻ، ففي البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلی رضي الله عنه قال: مر بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيت، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج من المسجد فذكرته، فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»، وعند مسلم من حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل عليه السلام إذ سمع نقيضا فوقه، فرفع جبريل عليه السلام بصره إلى السماء، فقال: «هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته» وهذا لفظ النسائي.

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال: مجدي عبدي - وقال مرة فوض إلي عبدي - فإذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبي ولعبي ما سأل».

فضائلها

ومن فضلها وعلو منزلتها أن الله أمرنا أن نقرأها في كل ركعة من الصلاة، ففي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

قال ابن كثير رحمته الله: (ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه:

أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي:

بقراءتك كما جاء مصرحاً به في الصحيح، عن ابن عباس وهكذا قال في هذا الحديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»، ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظم القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنْ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَأَنْ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هي أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاءه في الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَسْرَمْتُهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة المسيء صلاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها، فدل على ما قلناه.

والقول الثاني: أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج؛ والخداج هو: الناقص كما فسر به في الحديث: «غير تمام»، واحتجوا -أيضا- بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن»، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، ووجه المناظرة هاهنا يطول ذكره، وقد أشرنا إلى مأخذهم في ذلك، رحمهم الله.

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم: أنه تجب قراءتها في كل ركعة، وقال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات، أخذنا بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتعين قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزاءه لقوله: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، كما تقدم والله أعلم.

وقد روى ابن ماجه من حديث أبي سفيان السعدي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها»، وفي صحة هذا نظر، وموضح تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير، والله أعلم.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثاني: لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» ولكن في إسناده ضعف، ورواه مالك، عن وهب بن كيسان، عن جابر من كلامه، وقد روي هذا الحديث من طرق، ولا يصح شيء منها عن النبي صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية، لما تقدم، ولا تجب في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وذكر بقية الحديث، وهكذا رواه أهل السنن؛ أبو داود والترمذي والنسائي وابن

ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا»، وقد صححه مسلم ابن الحجاج أيضا، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي رحمته الله، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل .

والغرض من ذكر هذه المسائل هاهنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور، والله أعلم) اهـ.

لكن الصحيح مما تقدم وجوب قراءتها في الجهرية والسرية على الإمام والمأموم والمنفرد، ويدل على هذا المذهب عموم حديث عبادة السابق، وحديث عند أحمد (١٨٠٧٠)، عن محمد بن أبي عائشة، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لعلكم تقرأون والإمام يقرأ؛ مرتين أو ثلاثا»، قالوا يا رسول الله إنا لنفعل، قال: «فلا تفعلوا إلا أقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب».

ومن الأدلة على علو منزلتها كثرة أسماؤها؛ فإن كثرة الأسماء الثبوتية تدل على المدح.

قال ابن كثير رحمته الله: (يقال لها: الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضا: أم الكتاب عند الجمهور، وكره أنس والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنها ذلك اللوح المحفوظ، وقال الحسن: الآيات المحكمات: هن أم الكتاب، ولذا كرها- أيضا - أن يقال لها أم القرآن وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي

وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم»، ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة، لقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»، قال الله: حمدني عبدي» الحديث.

فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها، ويقال لها: الشفاء؛ لما رواه الدارمي عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم»، ويقال لها: الرقية؛ لحديث أبي سعيد رضي الله عنه في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما يدريك أنها رقية؟»، وروى الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سماها: أساس القرآن، قال: فأساسها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وسماها سفيان بن عيينة: الواقية، وسماها يحيى بن أبي كثير: الكافية؛ لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة: «أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها عوضا عنها»، ويقال لها: سورة الصلاة، والكنز ذكرهما الزمخشري في كشافه، وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري، ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، والله أعلم، وحكى

أبو الليث السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جدا، نقله القرطبي عنه، وهي سبع آيات بلا خلاف) اهـ.

قال القرطبي: (في أسماؤها وهي اثنا عشر اسما:

الأول: الصلاة ، قال الله تعالى: « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث، وقد تقدم.

الثاني: سورة الحمد، لأن فيها ذكر الحمد، كما يقال: سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها.

الثالث: فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسميت بذلك لأنه تفتح قراءة القرآن بها لفظا، وتفتح بها الكتابة في المصحف خطأ، وتفتح بها الصلوات.

الرابع: أم الكتاب، وفي هذا الاسم خلاف، جوزه الجمهور، وكرهه أنس والحسن وابن سيرين. قال الحسن: أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى:

﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال أنس وابن

سيرين: أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ، قال الله تعالى: ﴿وَلِئِنَّهُ فِي أُمَّرٍ

الْكِتَابِ﴾ [الزخرف: ٤].

الخامس: أم القرآن، واختلف فيه أيضا، فجوزه الجمهور، وكرهه أنس وابن سيرين، والأحاديث الثابتة ترد هذين القولين، روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» قال: هذا حديث حسن صحيح، وفي البخاري قال: «وسميت أم الكتاب لأنه يبتدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة»، وقال يحيى بن يعمر: أم القرى: مكة، وأم خراسان: مرو، وأم القرآن: سورة الحمد، وقيل: سميت أم القرآن لأنها أوله ومتضمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أول الأرض ومنها دحيت، ومنه سميت الأم أما لأنها أصل النسل، والأرض أما، في قول أمية بن أبي الصلت:

فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

ويقال لراية الحرب: أم، لتقدمها واتباع الجيش لها، وأصل أم أمهة، ولذلك تجمع على أمهات، قال الله تعالى ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ﴾، ويقال أمات بغير هاء، قال: (فرجت الظلام بأماتكا).

السادس: ليس في تسميتها بالمثاني وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله تعالى: ﴿كُنْبًا مُّشَدِّهًا مَّثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]، فأطلق على كتابه: مثاني، لأن الأخبار تشي فيه، وقد سميت السبع الطول أيضا مثاني، لأن الفرائض والقصص تشي فيها، قال ابن عباس رضي الله عنه: أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا

من المثاني، قال: السبع الطول، ذكره النسائي، وهي من «البقرة» إلى «الأعراف» ست، واختلفوا في السابعة، فقليل: «يونس»، وقيل: «الأنفال والتوبة»، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير. وقال أعشى همدان:

فلجوا المسجد وادعوا ربكم وادرسوا هذي المثاني والطول

السابع: المثاني جمع مثني، وهي التي جاءت بعد الأولى، والطول جمع أطول، وقد سميت الأنفال من المثاني لأنها تتلو الطول في القدر، وقيل: هي التي تزيد آياتها على المفصل وتنقص عن المئين، والمئون: هي السور التي تزيد كل واحدة منها على مائة آية.

الثامن: الرقية، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل، الذي رقى سيد الحي: «ما أدراك أنها رقية»، فقال: يا رسول الله شيء ألقى في روعي، الحديث، خرجه الأئمة، وسيأتي بتمامه.

التاسع: الأساس، شكا رجل إلى الشعبي وجع الخاصرة، فقال: عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول: لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دحيت، وأساس السموات عريبا، وهي السماء السابعة، وأساس الأرض عجيبا، وهي الأرض السابعة السفلى، وأساس الجنان جنة عدن، وهي سرّة الجنان عليها أسست الجنة، وأساس النار جهنم، وهي الدرّة السابعة السفلى عليها أسست الدرّكات، وأساس الخلق آدم،

وأساس الأنبياء نوح، وأساس بني إسرائيل يعقوب، وأساس الكتب القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، فإذا اعتلتت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى .

العاشر: الوافية، قاله سفيان بن عيينة، لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ، ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز.

الحادي عشر: الكافية، قال يحيى بن أبي كثير: لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها، يدل عليه ما روى محمد بن خلاد الإسكندراني قال: قال النبي ﷺ «أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضا» .

الثاني عشر: الرقية، قال المهلب: إن موضع الرقية منها إنما هو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقيل: السورة كلها رقية، لقوله ﷺ للرجل لما أخبره: «وما أدراك أنها رقية»، ولم يقل: أن فيها رقية، فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه) اهـ.

ومن فضائلها أن تجزي عن غيرها ولا يجزي غيرها عنها في الصلاة لما تقدم، وقول الله ﷻ: ﴿فَاقْرَأْهُ وَمَا تَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ محمول عليها وكذلك ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن»، فإن هذه المطلقات راجعة إلى ذلك المقيد «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة

الكتاب»، أخرجاه عن عبادة رضي الله عنه ، وقوله صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فصلاته خداج»، أخرج مسلم، ومسألة تعيين قراءة الفاتحة على الإمام والمأموم وما يتعلق بها من أحكام للعلماء فيها أقوال كثيرات، ومذاهب عديدة مسطرة في المطولات ومشار إليها في المختصرات، والصحيح من الأقوال أنها عائدة إلى هذا الحديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، فهي واجبة على الإمام والمأموم والمنفرد .

ومن فضائلها أنها رقية نافعة بإذن الله تعالى ، ففي حديث أبي سعيد رضي الله عنه في الصحيحين، البخاري (٥٠٠٧) ومسلم (٢٢٠١)، أن ناسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفر فمروا بحَيٍّ من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيفوهم، فقالوا لهم هل فيكم من راقٍ فإن سيد الحيّ لديغٍ أو مصاب، فقال رجل منهم: نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب فبرأ الرجل، فأعطى قطيعا من غنم فأبى أن يقبلها، وقال حتى أذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم وقال: «وما أدراك أنها رقية»، ثم قال: «خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم»، هذا لفظ مسلم.

ومن فضائلها ما سيأتي من تضمنها بيان أنواع التوحيد الثلاثة، ومن فضائلها بيانها لسبيل الهداية في قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

ومن فضائلها امتنان الله ﷻ بإنزالها على نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ

سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

قال الشوكاني رحمه الله في تفسيره: (اختلف أهل العلم في السبع المثاني ماهي؟ فقال جمهور المفسرين إنها الفاتحة، قال الواحدي وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبى، وزاد القرطبي؛ أبا هريرة وأبا العالية، وزاد النيسابوري؛ الضحاك وسعيد بن جبير وقد روي ذلك من قول رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه فتعين المصير إليه، وقيل: هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة الأنفال والتوبة، لأنها كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية، روي هذا القول عن ابن عباس، وقيل: المراد بالمثاني السبعة الأحزاب فإنها سبع صحائف، والمثاني جمع مثناة من التثنية أو جمع مثنية، وقال الزجاج: تشنى بما يقرأ بعدها معها، فعلى القول الأول يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني أنها تشنى، أي: تكرر في كل صلاة، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية أن العبر والأحكام والحدود كررت فيها، وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها، وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك وطاوس وأبو مالك، وهو رواية عن ابن عباس، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كُنَّا مُنْشِدَهَا مَثَانِي﴾.

وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن وهي الأمر، والنهي، والتبشير، والإنذار، وضرب الأمثال، وتعريف النعم، وأنباء قرون ماضية. قاله زياد ابن أبي مريم، ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثاني لا تستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم، وقد تقرر أنها المرادة بهذه الآية، فلا يقدر في ذلك صدق وصف المثاني على غيرها والقرآن العظيم معطوف على سبعا من المثاني ويكون من عطف العام على الخاص لأن الفاتحة بعض من القرآن، وكذلك إن أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنها بعض من القرآن، وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر، كما قيل في قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام

ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكية، وأكثر السبع الطوال مدنية، وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه، وظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾، أنه قد تقدم إتياء السبع على نزول هذه الآية، و«من» في ﴿مِّنَ الْمَثَانِي﴾ للتبويض أو البيان على اختلاف الأقوال، ذكر معنى ذلك الزجاج فقال: هي للتبويض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الإشباع) اهـ.

فائدة: تقدم أنها تسمى بالسبع المثاني، فهل هذه التسمية خاصة بها؟

قال القرطبي رحمته الله في تفسيره: (ليس في تسميتها بالمثاني وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عز وجل: ﴿كُنْبًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فأطلق على كتابه: مثاني، لأن الأخبار تثني فيه، وقد سميت السبع الطول أيضا مثاني، لأن الفرائض والقصص تثني فيها، قال ابن عباس: أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثاني، قال: السبع الطول، ذكره النسائي، وهي من «البقرة» إلى «الأعراف» ست، واختلفوا في السابعة، فقيل: يونس، وقيل: الأنفال والتوبة، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير، وقال أعشى همدان:

فلجوا المسجد وادعوا ربكم وادرسوا هذي المثاني وال طول) اهـ.

مكان نزولها

واختلف العلماء في نزول الحمد، ف قيل بمكة، وقيل بالمدينة، وقيل نزلت مرتين، والذي يظهر والله أعلم أنها نزلت بمكة، ثم لما كان النبي ﷺ بالمدينة نزل فضلها وأجرها على ما تقدم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما «أبشر بنورين آتيتها، فاتحة الكتاب وخواتم البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته» الحديث.

قال القرطبي في تفسيره: (قال ابن عطية: ظن بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد، لما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»، قال ابن عطية: وليس كما ظن، فإن هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم معلما به وبما ينزل معه، وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها، والله أعلم، قلت: الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبي صلى الله عليه وسلم بشيء من ذلك. وقد بينا أن نزولها كان بمكة، نزل بها جبريل عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وهذا يقتضي جميع القرآن، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل الملك بثوابها بالمدينة، والله أعلم.

وقد قيل: إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين، حكاه الثعلبي، وما ذكرناه أولى، فإنه جمع بين القرآن والسنة) اهـ.

وقال القرطبي أيضا: (اختلفوا أهى مكية أم مدنية؟ فقال ابن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحي - واسمه رفيع - وغيرهم: هي مكية، وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري وغيرهم: هي مدنية، ويقال: نزل نصفها بمكة، ونصفها بالمدينة، حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي في تفسيره، والأول أصح لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] والحجر مكية بالإجماع، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حُفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»، وهذا خبر عن الحكم، لا عن الابتداء، والله أعلم، وقد ذكر القاضي بن الطيب اختلاف الناس في أول ما نزل من القرآن، فقول: المدثر، وقيل: اقرأ، وقيل: الفاتحة، وذكر البيهقي في دلائل النبوة عن أبي مسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا» قالت: معاذ الله! ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكرت خديجة حديثه له، قالت: يا عتيق، اذهب مع محمد إلى

ورقة بن نوفل، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، فقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: «ومن أخبرك»، قال: خديجة، فانطلقا إليه فقصا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فانطلق هاربا في الأرض» فقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم اتتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، قل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝۱ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قل: لا إله إلا الله، فأتى ورقة فذكر ذلك له، فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به عيسى بن مريم، وأنت على مثل ناموس موسى، وأنت نبي مرسل، وأنت سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، وإن يدركني ذلك لأجاهدن معك، فلما توفي ورقة قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني»؛ يعني ورقة، قال البيهقي رحمه الله: هذا منقطع؛ يعني هذا الحديث، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزل عليه ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، و﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] اهـ.

عدد آياتها

وهي سبع آيات إجماعاً، قال القرطبي: (أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات، إلا ما روي عن حسين الجعفي: أنها ست، وهذا شاذ، وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ آية، وهي على عدّه ثمان آيات، وهذا شاذ، وقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، وقوله: «قسمت الصلاة» الحديث، يردُّ هذين القولين، وأجمعت الأمة أيضاً على أنها من القرآن، فإن قيل: لو كانت قرآناً لأثبتها عبد الله بن مسعود في مصحفه، فلما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن، كالمعوذتين عنده، فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنباري قال: حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا سليمان بن الأشعث حدثنا ابن أبي قدامة حدثنا جرير عن الأعمش قال: أظنه عن إبراهيم قال: قيل لعبد الله بن مسعود: لم لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة، قال أبو بكر: يعني أن كل ركعة سبيلها أن تفتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال: اختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها في موضع فيلزمي أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها في الصلاة) اهـ.

تفاضل القرآن

ومن المسائل التي تذكر هنا بعد ذكر الفاتحة؛ هل القرآن يتفاضل!؟

هذه مسألة اختلف فيها العلماء، والقول بتفاضل القرآن يؤدي إلى القول بتفاضل الأسماء والصفات، والمتأمل للأدلة من القرآن والسنة يجد تفضيلاً في هذا الباب، ومن ذلك الاسم الأعظم، ولا محذور في القول بالتفاضل.

قال القرطبي رحمته الله: (اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض، فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض، لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها، ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي، وجماعة من الفقهاء، وروي معناه عن مالك، قال يحيى ابن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها، وقال عن مالك في قول الله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، قال: محكمة مكان منسوخة، وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك، واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يشعر بنقص المفضول، والذاتية في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه، قال البستي: ومعنى هذه اللفظة «ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن»: أن الله تعالى لا يعطي لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثلما يعطي

لقارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاه من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة، قال ومعنى قوله: «أعظم سورة» أراد به في الأجر، لا أن بعض القرآن أفضل من بعض، وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ وَاللَّهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته، ليس موجودا مثلا في ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] وما كان مثلها، والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق، ومن قال بالتفضيل إسحاق بن راهويه وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو اختيار القاضي أبي بكر بن العربي وابن الحصار، لحديث أبي سعيد بن المعلى وحديث أبي بن كعب أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أي آية معك في كتاب الله أعظم» قال فقلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: فضرب في صدري وقال: «ليهنك العلم يا أبا المنذر»، أخرجه البخاري ومسلم، قال ابن الحصار: عجبني ممن يذكر الاختلاف مع هذه النصوص، وقال ابن العربي: قوله: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها»، وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزلة والزبور وغيرها، لأن هذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشيء أفضل الأفضل، صار أفضل الكل، كقولك: زيد أفضل العلماء فهو أفضل الناس.

قلت: وهذا هو الصواب الذي لا معدل عنه، وأن القرآن يتفاضل،
ومنه تفاضل أسماء الله ﷻ وصفاته.

قال: وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها، حتى قيل: إن جميع القرآن
فيها، وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن، ومن شرفها أن
الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القراءة إلا بها، ولا يلحق عمل
بثوابها، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ﴾ فيها التوحيد كله، وبهذا المعنى وقع البيان في قوله ﷻ لأبي «أي آية
في القرآن أعظم»، قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإنما
كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من
قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له» أفضل الذكر، لأنها كلمات حوت جميع
العلوم في التوحيد، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا
يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى) اهـ.

ولشيخ الإسلام ﷻ كلام طويل كما في المجموع (١٧/ ٧٢-٨٢) حول
هذه المسألة إذ نقل بعض العلماء القول عن أهل السنة والجماعة بعدم التفاضل
وذكره إجماعاً فقال ﷻ: (قالوا: وأما على قول أهل السنة والجماعة الذين
أجمعوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق فيمتنع أن يقع التفاضل في صفات

الله القائمة بذاته، ولأجل هذا الاعتقاد صار من يعتقده يذكر إجماع أهل السنة على امتناع التفضيل في القرآن، كما قال أبو عبد الله بن الدراج في مصنف صنفه في هذه المسألة قال: " أجمع أهل السنة على أن ما ورد في الشرع مما ظاهره المفاضلة بين آي القرآن وسوره ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض؛ إذ هو كله كلام الله وصفة من صفاته بل هو كله لله فاضل كسائر صفاته الواجب لها نعت الكمال"، وهذا النقل للإجماع هو بحسب ما ظنه لازماً لأهل السنة فلما علم أنهم يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق وظن هو أن المفاضلة إنما تقع في المخلوقات لا في الصفات قال ما قال، وإلا فلا ينقل عن أحد من السلف والأئمة أنه أنكر فضل كلام الله بعضه على بعض؛ لا في نفسه ولا في لوازمه ومتعلقاته؛ فضلاً عن أن يكون هذا إجماعاً، وليس هو لازماً لابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وأتباعه؛ فإن هؤلاء يُجوزون وقوع المفاضلة في القرآن العربي وهو مخلوق عندهم وهذا المخلوق يسمى " كتاب الله " والمعنى القديم يسمى " كلام الله " ولفظ " القرآن " يراد به عندهم ذلك المعنى القديم والقرآن العربي المخلوق، وحيث فهم يتأولون ما ورد من تفضيل بعض القرآن على بعض، على أن القرآن المخلوق عندهم، وإنما القول المتواتر عن أئمة السلف أنهم قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق وأنهم أنكروا مقالة الجهمية الذين جعلوا القرآن مخلوقاً منفصلاً عن الله بل كفروا من قال ذلك، والكتب الموجودة فيها ألفاظهم بأسانيدها وغير أسانيدها كثيرة: مثل: كتاب " الرد على

الجهمية" للإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم، و"الرد على الجهمية" لعبدالله بن محمد الجعفي شيخ البخاري، و"الرد على الجهمية" للحكم بن معبد الخزاعي، و"كتاب السنة" لعبد الله بن أحمد بن حنبل، و"السنة" لحنبل ابن عم الإمام أحمد، و"السنة" لأبي داود السجستاني، و"السنة" للأثرم، و"السنة" لأبي بكر الخلال، و"السنة والرد على أهل الأهواء" لخشيش بن أصرم، و"الرد على الجهمية" لعثمان بن سعيد الدارمي، و"نقض عثمان بن سعيد على الجهمي الكاذب العنيد فيما افترى على الله في التوحيد"، و"كتاب التوحيد" لابن خزيمة، و"السنة للطبراني"، ولأبي الشيخ الأصبهاني، و"شرح أصول السنة" لأبي القاسم اللالكائي، و"الإبانة" لأبي عبد الله بن بطة، وكتب أبي عبد الله بن منده، و"السنة" لأبي ذر الهروي، و"الأسماء والصفات" للبيهقي، و"الأصول" لأبي عمر الطلمنكي، و"الفاروق" لأبي إسماعيل الأنصاري، و"الحجة" لأبي القاسم التيمي، إلى غير ذلك من المصنفات التي يطول تعدادها: التي يذكر مصنفوها العلماء الثقات مذاهب السلف بالأسانيد الثابتة عنهم بألفاظهم الكثيرة المتواترة التي تعرف منها أقوالهم مع أنه من حين محنة الجهمية لأهل السنة - التي جرت في زمن أحمد بن حنبل لما صبر فيها الإمام أحمد وقام بإظهار السنة والصبر على محنة الجهمية حتى نصر الله الإسلام والسنة وأطفأ نار تلك الفتنة - ظهر في ديار الإسلام وانتشر بين الخاص والعام أن مذهب أهل السنة والحديث المتبعين للسلف من الصحابة والتابعين: أن القرآن كلام الله غير

مخلوق وأن الذين أحدثوا في الإسلام القول بأن القرآن مخلوق هم الجعد بن درهم والجهم بن صفوان ومن اتبعه من المعتزلة وغيرهم من أصناف الجهمية لم يقل هذا القول أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، فهذا القول هو القول المعروف عن أهل السنة والجماعة؛ وهو القول بأن القرآن كلام الله وهو غير مخلوق، أما كونه لا يفضل بعضه على بعض فهذا القول لم ينقل عن أحد من سلف الأمة وأئمة السنة الذين كانوا أئمة المحنة كأحمد بن حنبل وأمثلة ولا عن أحد قبلهم ولو قدر أنه نقل عن عدد من أئمة السنة لم يجوز أن يجعل ذلك إجماعاً منهم فكيف إذا لم ينقل عن أحد منهم وإنما هذا نقل لما يظنه الناقل لازماً لمذهبهم، فلما كان مذهب أهل السنة أن القرآن من صفات الله لا من مخلوقات الله وظن هذا الناقل أن التفاضل يمتنع في صفات الخالق نقل امتناع التفاضل عنهم بناء على هذا التلازم، ولكن يقال له: أما المقدمة الأولى فمنقولة عنهم بلا ريب، وأما المقدمة الثانية وهي أن صفات الرب لا تتفاضل فهل يمكنك أن تنقل عن أحد من السلف قولاً بذلك فضلاً عن أن تنقل إجماعهم على ذلك ما علمت أحداً يمكنه أن يثبت عن أحد من السلف أنه قال ما يدل على هذا المعنى لا بهذا اللفظ ولا بغيره فضلاً عن أن يكون هذا إجماعاً، ولكن إن كان قال قائل ذلك ولم يبلغنا قوله فالله أعلم.

لكن الذي أقطع به ويقطع به كل من له خبرة بكلام السلف أن القول بهذا لم يكن مشهوراً بين السلف، ولا قاله واحد واشتهر قوله عند الباقيين

فسكتوا عنه، ولا هو معروف في الكتب التي نقل فيها ألفاظهم بأعيانها، بل المنقول الثابت عنهم - أو عن كثير منهم - يدل على أنهم كانوا يرون تفاضل صفات الله تعالى وهكذا من قال من أصحاب مالك أو الشافعي أو أحمد عن أهل السنة: أن القرآن لا يفضل بعضه على بعض فإنما مستندهم أن أهل السنة متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن كلامه من صفاته القائمة بنفسه ليس من مخلوقاته وهذا أيضا صحيح عن أهل السنة، ثم ظنوا أن التفاضل إنما يقع في المخلوق لا في الصفات وهذا الظن لم ينقلوه عن أحد من أئمة الإسلام كمالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة والثوري والأوزاعي ولا من قبل هؤلاء ولهذا شنع هؤلاء على من ظن فضل بعضه على بعض كما دلت عليه النصوص والآثار، لظنهم أن ذلك مستلزم لخلاف مذهب أهل السنة، كما قال أبو عبد الله بن المرابط في الكلام على حديث البخاري في رده لتأويل من تأول هذا الحديث على أن هذه السورة إذا عدلت بثلاث القرآن أنها تفضل الربع منه وخمسه وما دون الثلث فهو التفاضل في كتاب الله تعالى وهو صفة من صفات الله ﷻ وقال: فهذا لولا عذر الجهالة لحكم على قائله بالكفر إذ لا يصح التفاضل إلا في المخلوقات؛ إذ صفاته كلها فاضلة في غاية الفضيلة ونهاية العلو والكرامة، فمن تنقص شيئا منها عن سائرهما فقد ألد فيها ألا تسمعه منع ذلك بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾

قال: وقد أجمع أهل السنة على أن القرآن صفة من صفات الله لا من صفة خلقه، قال: وإنما أوقعهم في تأويل ذلك قوله تعالى: ﴿ تَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّا أَوْ مِثْلَهَا ﴾، ولا يخلو معنى ذلك من أحد وجهين: إما أن تكون النسخة خيرا من المنسوخة في ذاتها وإما أن تكون خيرا منها لمن تعبد بها إذ محال أن يتفاضل القرآن في ذاته على ما ذهب إليه أهل السنة والاستقامة؛ إذ كلُّ من عند الله؛ لأن القرآن العزيز صفة الله وأسماء الله وصفاته كلها متوافرة في الكمال متناهية إلى غاية التمام لا يلحق شيئا منها نقص بحال، فلما استحال أن تكون آية خيرا من آية في ذاتها علمنا أن المراد بخير منها إنما هو للمتعبدين بها لم ينقل عباده من تخفيف إلى تثقيل ولكنه نقلهم بالنسخ من تحريم إلى تحليل ومن إيجاب إلى تخيير ومن تطهير إلى تطهير، والشاهد لنا قوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]، فيقال: أما قول القائل: " لولا عذر الجهالة لحكم على مثبت المفاضلة بالكفر"، فهم يقابلونه بمثل ذلك وحجتهم أقوى، وذلك لأن الكفر حكم شرعي، وإنما يثبت بالأدلة الشرعية، ومن أنكر شيئا لم يدل عليه الشرع؛ بل علم بمجرد العقل لم يكن كافرا، وإنما الكافر من أنكر ما جاء به الرسول ومعلوم أنه ليس في الكتاب والسنة نص يمنع تفضيل بعض كلام الله على بعض؛ بل ولا يمنع تفاضل صفاته تعالى؛ بل ولا نقل هذا

النفي عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أئمة المسلمين الذين لهم لسان صدق في الأمة بحيث جعلوا أعلاما للسنة وأئمة للأمة.

وأما تفضيل بعض كلام الله على بعض؛ بل تفضيل بعض صفاته على بعض: فدلالة الكتاب والسنة والأحكام الشرعية والآثار السلفية كثيرة على ذلك، فلو قُدِّرَ أن الحق في نفس الأمر أنها لا تتفاضل لم يكن نفي تفاضلها معلوما إلا بالعقل لا بدليل شرعي، وإذا قُدِّرَ أنها تتفاضل فالدال على ذلك هو الأدلة الشرعية مع العقلية فإذا قدر أن الحق في نفس الأمر هو التفضيل لكان كُفْرُ جاحِدِ ذلك أولى من كُفْرِ من يثبت التفضيل؛ إذا لم يكن حقا في نفس الأمر، لأن ذلك جحد موجب الأدلة الشرعية بغير دليل شرعي؛ بل لما رآه بعقله وأخطأ فيه؛ إذ نحن نتكلم في هذا التقدير، ومعلوم أن من خالف ما جاءت به الرسل عن الله بمجرد عقله فهو أولى بالكفر ممن لم يخالف ما جاءت به الرسل عن الله، وإنما خالف ما علم بالعقل إن كان ذلك حقا، ونظير هذا قول بعض نفاة الصفات لما تأمل حال أصحابه وحال مثبتيها قال: لا ريب أن حال هؤلاء عند الله خير من حالنا فإن هؤلاء إن كانوا مصيبين فقد نالوا الدرجات العلى والرضوان الأكبر وإن كانوا مخطئين فإنهم يقولون: نحن يا رب صدَّقنا ما دل عليه كتابك وسنة رسولك؛ إذ لم تُبَيِّنْ لنا بالكتاب والسنة نفي الصفات كما دل كلامك على إثباتها فنحن أثبتنا ما دل عليه كلامك وكلام رسولك فإن كان الحق في خلاف ذلك فلم يبين الرسول ما يخالف ذلك ولم

يكن خلاف ذلك مما يعلم ببداهة العقول بل إن قُدِّرَ أنه حق فلا يعلمه إلا الأفراد، فكيف وعامة المنتهين في خلاف ذلك إلى الغاية يقرون بالحيرة والارتباب، قال النافي: وإن كنا نحن مصييين فإنه يقال لنا: أنتم قلتم شيئاً لم آمركم بقوله وطلبتم علماً لم آمركم بطلبه، فالثواب إنما يكون لأهل الطاعة وأنتم لم تمتثلوا أمرى، قال: وإن كنا مخطئين فقد خسرنا خسارنا ميينا، وهذا حال من أثبت المفاضلة في كلام الله وصفاته ومن نفاها فإن المثبت معتصم بالكتاب والسنة والآثار ومعه من المعقولات الصريحة التي تبين صحة قوله وفساد قول منازعه ما لا يتوجه إليها طعن صحيح، وأما النافي فليس معه آية من كتاب الله ولا حديث عن رسول الله ﷺ ولا قول أحد من سلف الأمة، وإنما معه مجرد رأي يزعم أن عقله دل عليه ومنازعه يبين أن العقل إنما دل على نقيضه وأن خطأه معلوم بصريح المعقول كما هو معلوم بصحيح المنقول، واحتجاج المحتج على نفي التفاضل بقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ في غاية الفساد؛ فإن الآية لا تدل على هذا بوجه من الوجوه سواء أريد بها من آمن ببعضه وكفر ببعضه أو أريد بها من عضه فقال: هو سحر وشعر ونحو ذلك؛ بل من نفى فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ على ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ فهو أولى بأن يكون ممن جعله عضين؛ إن دلت الآية على هذه المسألة، وذلك أن من آمن بها وصف الله به كلامه فأقر بأنه جميعه كلام الله، وأقر به كله فلم يكفر بحرف منه، وعلم أن كلام الله أفضل من كل كلام، وأن خير الكلام كلام الله، وأنه لا

أحسن من الله حديثا، ولا أصدق منه قيلا، وأقرّ بها أخبر الله به ورسوله من فضل بعض كلامه كفضل فاتحة الكتاب وآية الكرسي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ونحو ذلك، بل وتفضيل يس وتبارك والآيتين من آخر سورة البقرة، بل وتفضيل البقرة وآل عمران، وغير ذلك من السور والآيات التي نطقت النصوص بفضلها وأقرّ بأنه كلام الله ليس منه شيء كلاما لغيره؛ لا معانيه ولا حروفه فهو أبعد عن جعله عضيين ممن لم يؤمن بما فضل الله به بعضه على بعض؛ بل آمن بفضله من جهة المتكلم ولم يؤمن بفضله من جهة المتكلم فيه؛ فإن هذا في الحقيقة آمن به من وجه دون وجه، وكذلك من قال: إنه معنى واحد وأن القرآن العربي لم يتكلم الله به؛ بل هو مخلوق خلقه الله في الهواء أو أحدثه جبريل أو محمد، فهذا أولى بأن يكون داخلا فيمن عضه القرآن ورماه بالإفك وجعل القرآن العربي كلام مخلوق: إما بشرٌ وإما ملكٌ وإما غيرهما... إلى آخر كلامه.

الكلام على الاستعاذة

قال ابن كثير **رحمته الله**: (الكلام على تفسير الاستعاذة، قال الله تعالى: ﴿حُذِرْ أَلْفَوْهُ وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ [الأعراف: ١٩٩ - ٢٠٠] ، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ١٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨] ، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦] .

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا، ولا يتبغى غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى ﴿يَنْبَغِيْ ءَادَمَ لَا يَفْنَدَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ٦) [فاطر: ٦] وقال ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ

أُولَئِكَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠] ، وقد أقسم للوالد إنه لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿ قَالَ فِعْرَانُكَ لَا غَيْرَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُحْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] ، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩].

قالت طائفة من القراء وغيرهم: نتعوذ بعد القراءة، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة؛ ومن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره ابن قلوفا عنه، وأبو حاتم السجستاني، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي المغربي في كتاب " الكامل " .

وروي عن أبي هريرة -أيضا- وهو غريب، ونقله فخر الدين محمد بن عمر الرازي في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال: وهو قول إبراهيم النخعي وداود بن علي الأصبهاني الظاهري، وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك رحمته الله، أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة، واستغربه ابن العربي، وحكى قول ثالث وهو الاستعاذة أولا وأخرا جمعا بين الدليلين نقله فخر الدين.

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ

الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦]، أي: إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك؛ قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا محمد بن الحسن بن آتش^(١)، حدثنا جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرفاعي الشكري^(٢)، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك» ويقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه».

وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن علي بن علي، وهو الرفاعي، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب، وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبر، والنفث بالشعر، كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة، عن عمر بن مرة^(٣)، عن عاصم العنزي، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في

(١) قال الحافظ في التقریب؛ فيه لين.

(٢) قال أبو حاتم لا يحتج به.

(٣) قال الحافظ مقبول؛ أي إن توبع، فحديثه يعتبر به.

الصلاة، قال: « الله أكبر كبيرا، ثلاثا، الحمد لله كثيرا، ثلاثا، سبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفته »، قال عمرو: وهمزه الموتة، ونفخه الكبر، ونفته الشعر.

وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفته»، قال: همزه: الموتة، ونفته: الشعر، ونفخه: الكبر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا شريك، عن يعلى بن عطاء، عن رجل حدثه: أنه سمع أبا أمامة الباهلي رضي الله عنه يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر ثلاثا، ثم قال: «لا إله إلا الله» ثلاث مرات، و«سبحان الله وبحمده»، ثلاث مرات، ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفته»^(١).

وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المنثى الموصلي في مسنده: حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي، حدثنا علي بن هشام بن البريد عن يزيد بن زياد، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: تلاحي رجلان عند النبي ﷺ، فتمزع أنف أحدهما غضبا، فقال رسول

(١) ضعيف، لشريك والرجل المهم.

الله ﷺ: «إني لأعلم شيئا لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وكذا رواه النسائي في اليوم واللييلة، عن يوسف بن عيسى المروزي، عن الفضل بن موسى، عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد به.

وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل، عن أبي سعيد، عن زائدة، وأبو داود عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، والترمذي، والنسائي في اليوم واللييلة عن بندار، عن ابن مهدي، عن الثوري، والنسائي -أيضا- من حديث زائدة بن قدامة، ثلاثهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم، فغضب أحدهما غضبا شديدا حتى خيل إلي أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب»، قال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم»، قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ومحك، وجعل يزداد غضبا، وهذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: مرسل، يعني أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق معاذ ابن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب، كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل، فإن هذه القصة شهدتها غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم.

قال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، قال: قال سليمان بن صرد: استب رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ قال: إني لست بمجنون.

وقد رواه -أيضا- مع مسلم، وأبي داود، والنسائي، من طرق متعددة، عن الأعمش، به.

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها هاهنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال، والله أعلم، وقد رُوِيَ أن جبريل عليه السلام، أول ما نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة.

كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ، قال: «أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها

الله على محمد ﷺ، بلسان جبريل، وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفا وانقطاعا، والله أعلم.

مسألة: وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحمة يأثم تاركها، وحكى فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب، واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية: ﴿فَأَسْتَعِذْ﴾ وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي ﷺ عليها، ولأنها تدرأ شرّ الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب، وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي ﷺ دون أمته، وحكي عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة منه.

مسألة: وقال الشافعي في الإملاء يجهر بالتعوذ، وإن أسر فلا يضر، وقال في الأم بالتخير لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة، واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى: هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم، فإذا قال المستعيز: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة وزاد بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم،

قاله الثوري والأوزاعي وحكي عن بعضهم أنه يقول: أستعيز بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور، والأحاديث الصحيحة، كما تقدم، أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسألة: ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة، وهو قول أبي حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف: بل للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور بعدها قبل القراءة.

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للضم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له وتهيؤ لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يُدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدو البشري كان شهيدا، ومن قتله العدو الباطني كان طريدا، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجورا، ومن قهره العدو الباطن كان مفتونا أو

موزوراء، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

فصل: والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبى:

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به ممن أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فصل: معنى الاستعاذة

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنيائي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله في الأعراف:

﴿ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ، وقال تعالى في سورة " قد أفلح المؤمنون " : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (١٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ (١٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (١٨) ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] ، وقال تعالى في سورة " حم السجدة " : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا أَلَا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] ، والشيطان في لغة العرب بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] ، والشيطان في لغة العرب

مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان عليه السلام:

أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقي في السجن والأغلال

فقال: أيما شاطن، ولم يقل: أيما شائط.

وقال النابغة الذبياني - وهو: زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن ذبيان -:

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانة والفؤاد بها رهين

يقول: بعدت بها طريق بعيدة.

وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعَل فعل الشيطان ولو كان من شاط لقالوا: تشيَّط، والشيطان مشتق من البعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وفي مسند الإمام أحمد، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم»^(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -أيضا- قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود»، فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر فقال: «الكلب الأسود شيطان»، وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ركب برذونا، فجعل يتبختر به، فجعل لا يضربه فلا يزداد إلا تبخترا، فنزل عنه، وقال: ما حملتوني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي، إسناده صحيح.

والرجيم: فعيل بمعنى مفعول، أي: أنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٦ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ

(١) ضعيف فيه علي بن زيد بن جدعان، والقاسم أبو عبد الرحمن.

﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَسْرَقَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ [الحجر: ١٦-١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرمي الناس بالوساوس والخبائث والأول أشهر) اهـ.

الكلام على البسملة

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قال ابن كثير رحمته الله: (افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كتبت للفصل، لا أنها آية؟، على أقوال للعلماء سلفا وخلفا، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع.

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في مستدركه أيضا، ورؤي مرسلا عن سعيد بن جبير، وفي صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدّها آية، لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي، وفيه ضعف، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عنها، وروى له الدارقطني متابعا، عن أبي هريرة مرفوعا، وروى مثله عن علي وابن عباس وغيرهما، ومن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلي رضي الله عنه، ومن التابعين: عطاء، وطاوس،

وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله، وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي في قول، في بعض طرق مذهبه: هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريان.

وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكاها أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله، هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا.

القول في الجهر بالبسملة

فأما ما يتعلق بالجهر بها، فمفرع على هذا؛ فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعي رحمته الله، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفا وخلفا، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاه ابن عبد البر، والبيهقي عن عمر وعلي، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وهو غريب، ومن التابعين عن سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبي قلابة، والزهري، وعلي بن الحسين، وابنه محمد، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسالم، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل، وابن سيرين، ومحمد بن المنكدر، وعلي بن عبد الله بن عباس، وابنه محمد، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، وعمر بن عبد العزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبي ثابت، وأبي الشعثاء، ومكحول، وعبد الله بن معقل بن مقرن، زاد البيهقي: وعبد الله بن صفوان، ومحمد بن الحنفية، زاد ابن عبد البر: وعمر بن دينار.

والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أبعاضها، وأيضا فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم في

مستدرکه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم.

قلت: قد أعل الحديث بتفرد نعيم المجرم بها؛ فلا يصح الجهر بها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم البتة.

وروى أبو داود والترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفتح الصلاة بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم قال الترمذي: وليس إسناده بذلك .

وقد رواه الحاكم في مستدرکه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم قال: صحيح ^(١).

وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كانت قراءته مدا، ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ويمد ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ويمد ﴿الرَّحْمَنِ﴾، ويمد ﴿الرَّحِيمِ﴾ ^(٢).

(١) صحيح الحاكم ليس بصحيح.

(٢) وهذا ليس فيه أنه جهر بها في الصلاة.

وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرک الحاكم، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وقال الدارقطني: إسناده صحيح.

وروى الشافعي رحمته الله، والحاكم في مستدرکه، عن أنس رضي الله عنه: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسمة، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسمل.

وفي هذه الأحاديث، والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطريقها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسمة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسمة بالكلية، لا جهراً ولا سراً، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وبما في

الصحيحين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولمسلم: لا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول قراءة ولا في آخرها، ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

فهذه مأخذ الأئمة رحمهم الله، في هذه المسألة وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، والله الحمد والمنة اهـ.

وقد أشبع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله هذه المسألة كما في المجموع (٢٢/٤١٠-٤٣٧)، فقال رحمته الله: (أما حديث أنس في نفي الجهر فهو صريح لا يحتمل هذا التأويل فإنه قد رواه مسلم في صحيحه فقال فيه: «صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول قراءة ولا في آخرها»، وهذا النفي لا يجوز إلا مع العلم بذلك لا يجوز بمجرد كونه لم يسمع مع إمكان الجهر بلا سماع، واللفظ الآخر الذي في صحيح مسلم: «صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحدا منهم يجهر أو قال: يصلي بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»، فهذا نفي فيه السماع ولو لم يرو إلا هذا اللفظ لم يجوز تأويله بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ جهرا ولا يسمع أنس لوجوه:

أحدها: أن أنسا إنما روى هذا ليين لهم ما كان النبي ﷺ يفعلُه إذ لا غرض للناس في معرفة كون أنس سمع أو لم يسمع إلا ليستدلوا بعدم سماعه على عدم المسموع فلو لم يكن ما ذكره دليلا على نفي ذلك لم يكن أنس ليروي شيئا لا فائدة لهم فيه ولا كانوا يروون مثل هذا الذي لا يفيدهم.

الثاني: أن مثل هذا اللفظ صار دالا في العرف على عدم ما لم يدرك، فإذا قال: ما سمعنا أو ما رأينا لما شأنه أن يسمعه ويراه كان مقصوده بذلك نفي وجوده وذكر نفي الإدراك دليل على ذلك، ومعلوم أنه دليل فيما جرت العادة بإدراكه وهذا يظهر بالوجه الثالث.

الوجه الثالث: وهو أن أنسا كان يخدم النبي ﷺ حين قدم النبي ﷺ المدينة إلى أن مات، وكان يدخل على نسائه قبل الحجاب ويصحبه حضرا وسفرا وكان حين حج النبي ﷺ تحت ناقته يسيل عليه لعابها، أفيمكن مع هذا القرب الخاص والصحبة الطويلة أن لا يسمع النبي ﷺ يجهر بها مع كونه يجهر بها هذا مما يعلم بالضرورة بطلانه في العادة، ثم إنه صحب أبا بكر وعمر وعثمان وتولى لأبي بكر وعمر ولايات، ولا كان يمكن مع طول مدتهم أنهم كانوا يجهرون وهو لا يسمع ذلك فتبين أن هذا تحريف لا تأويل، لو لم يرو إلا هذا اللفظ؛ فكيف والآخر صريح في نفي الذكر بها وهو يفضل هذه الرواية الأخرى، وكلا الروايتين ينفي تأويل من تأول قوله: «يفتتحون الصلاة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أنه أراد السورة فإن قوله: «يفتتحون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول قراءة ولا في آخرها»، صريح أنه في قصد الافتتاح بالآية لا بسورة الفاتحة التي أولها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، إذ لو كان مقصوده ذلك لتناقض حديثاه، وأيضا فإن افتتاح الصلاة بالفاتحة قبل السورة هو من العلم الظاهر العام الذي يعرفه الخاص والعام كما يعلمون أن الركوع قبل السجود وجميع الأئمة غير النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان يفعلون هذا ليس في نقل مثل هذا فائدة ولا هذا مما يحتاج فيه إلى نقل أنس وهم قد سألوه عن ذلك وليس هذا مما يسأل عنه وجميع الأئمة من أمراء الأمصار والجيوش وخلفاء بني أمية وبني الزبير وغيرهم ممن أدركه أنس كانوا يفتتحون بالفاتحة ولم يشتهبه هذا على أحد ولا شك؛ فكيف يظن أن أنسا قصد تعريفهم بهذا وأنهم سألوه عنه، وإنما مثل ذلك مثل أن يقال: فكانوا يصلون الظهر أربعاً والعصر أربعاً والمغرب ثلاثاً أو يقول: فكانوا يجهرون في العشاءين والفجر ويخافتون في صلاتي الظهرين، أو يقول: فكانوا يجهرون في الأوليين دون الأخيرتين، ومثل حديث أنس حديث عائشة الذي في الصحيح أيضا: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»، إلى آخره وقد رُوِيَ «يفتح القراءة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾»،

وهذا صريح في إرادة الآية؛ لكن مع هذا ليس في حديث أنس نفي لقراءتها سرا؛ لأنه روي «فكانوا لا يجهرون بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»، وهذا إنما نفى هنا الجهر، وأما اللفظ الآخر «لا يذكرون»، فهو إنما ينفي ما يمكنه العلم بانتفائه وذلك موجود في الجهر فإنه إذا لم يسمع مع القرب علم أنهم لم يجهروا، وأما كون الإمام لم يقرأها فهذا لا يمكن إدراكه إلا إذا لم يكن له بين التكبير والقراءة سكتة يمكن فيها القراءة سرا؛ ولهذا استدل بحديث أنس على عدم القراءة من لم ير هناك سكوتا كمالك وغيره؛ لكن قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول؟ قال: «أقول: كذا وكذا» إلى آخره، وفي السنن من حديث عمران وأبي وغيرهما: أنه كان يسكت قبل القراءة، وفيها أنه كان يستعيز وإذا كان له سكوت لم يمكن أنسا أن ينفي قراءتها في ذلك السكوت فيكون نفيه للذكر وإخباره بافتتاح القراءة بها إنما هو في الجهر وكما أن الإمساك عن الجهر مع الذكر سرا يسمى سكوتا كما في حديث أبي هريرة فيصلح أن يقال: لم يقرأها ولم يذكرها؛ أي جهرها؛ فإن لفظ السكوت ولفظ نفي الذكر والقراءة: مدلولهما هنا واحد، ويؤيد هذا حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه الذي في السنن: أنه سمع ابنه يجهر بها فأنكر عليه وقال: يا بني إياك والحدث وذكر أنه صلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فلم يكونوا يجهرون بها، فهذا مطابق لحديث أنس وحديث عائشة اللذين في الصحيح، وأيضا فمن المعلوم أن الجهر بها مما تتوافر

الهمم والدواعي على نقله فلو كان النبي ﷺ يجهر بها كالجهر بسائر الفاتحة لم يكن في العادة ولا في الشرع ترك نقل ذلك بل لو انفرد بنقل مثل هذا الواحد والاثنان لقطع بكذبها إذ التواطؤ فيما تمنع العادة والشرع كتمانها كالتواطؤ على الكذب فيه، ويمثل هذا بكذب دعوى الرافضة في النص على علي في الخلافة وأمثال ذلك.

وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أنه ليس في الجهر بها حديث صريح ولم يرو أهل السنن المشهورة: كأبي داود والترمذي والنسائي شيئاً من ذلك وإنما يوجد الجهر بها صريحاً في أحاديث موضوعة يرويها الثعلبي والماوردي وأمثالهما في التفسير، أو في بعض كتب الفقهاء الذين لا يميزون بين الموضوع وغيره بل يحتجون بمثل حديث الحميراء، وأعجب من ذلك أن من أفاضل الفقهاء من لم يعز في كتابه حديثاً إلى البخاري إلا حديثاً في البسمة وذلك الحديث ليس في البخاري ومن هذا مبلغ علمه في الحديث كيف يكون حالهم في هذا الباب أو يرويها من جمع هذا الباب: كالدارقطني والخطيب وغيرهما فإنهم جمعوا ما روي وإذا سئلوا عن صحتها قالوا: بموجب علمهم، كما قال الدارقطني لما دخل مصر، وسئل أن يجمع أحاديث الجهر بها فجمعها قيل له: هل فيها شيء صحيح؟ فقال: أما عن النبي ﷺ فلا، وأما عن الصحابة فمنه صحيح ومنه ضعيف، وسئل أبو بكر الخطيب عن مثل ذلك فذكر حديثين حديث معاوية لما صلى بالمدينة وقد رواه الشافعي رحمته الله قال: حدثنا عبد المجيد

عن ابن جريج قال أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم أن أبا بكر بن حفص بن عمر أخبره، أن أنس بن مالك قال: صلى معاوية بالمدينة فجهر فيها بأم القرآن فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لأم القرآن، ولم يقرأ بها للسورة التي بعدها ولم يكبر حين يهوي حتى قضى تلك الصلاة، فلما سلم ناداه من سمع ذلك من المهاجرين من كل مكان، يا معاوية أسرقت الصلاة أم نسيت؟ فلما صلى بعد ذلك قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ للسورة التي بعد أم القرآن وكبر حين يهوي ساجدا، وقال الشافعي أنبأنا إبراهيم بن محمد قال: حدثني ابن خثيم عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه عن أبيه أن معاوية قدم المدينة فصلى بهم ولم يقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ولم يكبر إذا خفض وإذا رفع فناده المهاجرون حين سلم والأنصار: أي معاوية؟ سرقت الصلاة؟ وذكره، وقال الشافعي أنبأنا يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه عن أبيه عن جده عن معاوية والمهاجرين والأنصار بمثله أو مثل معناه لا يخالفه، وأحسب هذا الإسناد أحفظ من الإسناد الأول، وهو في كتاب إسماعيل ابن عبيد بن رفاعه عن أبيه عن جده عن معاوية، وذكر الخطيب أنه أقوى ما يحتج به وليس بحجة كما يأتي بيانه، فإذا كان أهل المعرفة بالحديث متفقين على أنه ليس في الجهر حديث صحيح ولا صريح فضلا أن يكون فيها أخبار مستفيضة أو متواترة امتنع أن النبي ﷺ كان يجهر بها؛ كما يمتنع أن يكون كان يجهر بالاستفتاح والتعوذ ثم لا ينقل، فإن قيل: هذا معارض بترك الجهر بها فإنه

مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله ثم هو مع ذلك ليس منقولاً بالتواتر بل قد تنازع فيه العلماء كما أن ترك الجهر بتقدير ثبوته كان يداوم عليه ثم لم ينقل نقلاً قاطعاً بل وقع فيه النزاع.

قيل: الجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: أن الذي تتوافر الهمم والدواعي على نقله في العادة ويجب نقله شرعاً: هو الأمور الوجودية فأما الأمور العدمية فلا خبر لها ولا ينقل منها إلا ما ظن وجوده أو احتيج إلى معرفته فينقل للحاجة؛ ولهذا قالوا لو نقل ناقل افتراض صلاة سادسة أو زيادة على صوم رمضان أو حجا غير حج البيت أو زيادة في القرآن أو زيادة في ركعات الصلاة أو فرائض الزكاة ونحو ذلك لقطعنا بكذبه فإن هذا لو كان لوجب نقله نقلاً قاطعاً عادة وشرعاً وإن عدم النقل يدل على أنه لم ينقل نقلاً قاطعاً عادة وشرعاً؛ بل يستدل بعدم نقله مع توافر الهمم والدواعي في العادة والشرع على نقله أنه لم يكن. وقد مثل الناس ذلك بما لو نقل ناقل: أن الخطيب يوم الجمعة سقط من المنبر ولم يصل الجمعة أو أن قوماً اقتتلوا في المسجد بالسيوف فإنه إذا نقل هذا الواحد والاثنان والثلاثة دون بقية الناس علمنا كذبهم في ذلك؛ لأن هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله في العادة؛ وإن كانوا لا ينقلون عدم الاقتتال ولا غيره من الأمور العدمية، يوضح ذلك أنهم لم ينقلوا الجهر بالاستفتاح والاستعادة واستدلت الأمة على عدم جهره بذلك وإن كان لم ينقل نقلاً عاماً عدم الجهر بذلك فبالطريق الذي يعلم

عدم جهره بذلك يعلم عدم جهره بالبسملة وبهذا يحصل الجواب عما يورده بعض المتكلمين على هذا الأصل وهو كون الأمور التي تتوافر الهمم والدواعي على نقلها يمتنع ترك نقلها فإنهم عارضوا أحاديث الجهر والقنوت والأذان والإقامة فأما الأذان والإقامة فقد نقل فعل هذا وهذا وأما القنوت فإنه قنت تارة وترك تارة وأما الجهر فإن الخبر عنه أمر وجودي ولم ينقل فيدخل في القاعدة.

الوجه الثاني: أن الأمور العدمية لما احتيج إلى نقلها نقلت فلما انقضى عصر الخلفاء الراشدين وصار بعض الأئمة يجهر بها كابن الزبير ونحوه، سأل بعض الناس بقايا الصحابة كأنس فروى لهم أنس ترك الجهر بها وأما مع وجود الخلفاء فكانت السنة ظاهرة مشهورة ولم يكن في الخلفاء من يجهر بها فلم يحتج إلى السؤال عن الأمور العدمية حتى ينقل.

الثالث: أن نفي الجهر قد نقل نقلا صحيحا صريحا في حديث أبي هريرة والجهر بها لم ينقل نقلا صحيحا صريحا مع أن العادة والشرع يقتضي أن الأمور الوجودية أحق بالنقل الصحيح الصريح من الأمور العدمية،

وهذه الوجوه من تدبرها وكان عالما بالأدلة القطعية قطع بأن النبي ﷺ لم يكن يجهر بها بل ومن لم يتدرب في معرفة الأدلة القطعية من غيرها يقول أيضا: إذا كان الجهر بها ليس فيه حديث صحيح صريح فكيف يمكن بعد هذا أن

النبي ﷺ كان يجهر بها ولم تنقل الأمة هذه السنة بل أهملوها وضيعوها؟ وهل هذه إلا بمثابة أن ينقل ناقل: أنه كان يجهر بالاستفتاح والاستعاذة كما كان فيهم من يجهر بالبسملة ومع هذا فنحن نعلم بالاضطرار أن النبي ﷺ لم يكن يجهر بالاستفتاح والاستعاذة كما كان يجهر بالفاتحة، كذلك نعلم بالاضطرار أن النبي ﷺ لم يكن يجهر بالبسملة كما كان يجهر بالفاتحة ولكن يمكن أنه كان يجهر بها أحيانا أو أنه كان يجهر بها قديما ثم ترك ذلك كما روى أبو داود في مراسيله عن سعيد بن جبير ورواه الطبراني في معجمه عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ كان يجهر بها بمكة فكان المشركون إذا سمعوها سبوا الرحمن فترك الجهر فما جهر بها حتى مات» فهذا محتمل.

وأما الجهر العارض، فمثل ما في الصحيح أنه كان يجهر بالآية أحيانا ومثل جهر بعض الصحابة خلفه بقوله: «ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه»، ومثل جهر عمر بقوله: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»، ومثل جهر ابن عمر وأبي هريرة بالاستعاذة، ومثل جهر ابن عباس بالقراءة على الجنابة ليعلموا أنها سنة، ويمكن أن يقال جهر من جهر بها من الصحابة كان على هذا الوجه ليعرفوا أن قراءتها سنة؛ لا لأن الجهر بها سنة، ومن تدبر عامة الآثار الثابتة في هذا الباب علم أنها آية من كتاب الله وأنهم قرءوها لبيان ذلك لا لبيان كونها من الفاتحة، وأن الجهر بها سنة مثل ما ذكر ابن وهب في جامعه، قال أخبرني رجال من أهل العلم عن ابن عباس وأبي

هريرة وزيد بن أسلم؛ وابن شهاب: مثله بغير هذا الحديث عن ابن عمر أنه كان يفتح القراءة بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال ابن شهاب: يريد بذلك أنها آية من القرآن، فإن الله أنزلها قال: وكان أهل الفقه يفعلون ذلك فيما مضى من الزمان، وحديث ابن عمر معروف من حديث حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان إذا صلى جهر بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فإذا قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فهذا الذي ذكره ابن شهاب الزهري هو أعلم أهل زمانه بالسنة بين حقيقة الحال، فإن العمدة في الآثار في قراءتها إنما هي عن ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر، وقد عرف حقيقة حال أبي هريرة في ذلك وكذلك غيره رضي الله عنهم أجمعين، ولهذا كان العلماء بالحديث ممن يروي الجهر بها ليس معه حديث صريح لعلمه بأن تلك أحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما يتمسك بلفظ محتمل مثل اعتمادهم على حديث نعيم المجرم عن أبي هريرة المتقدم، وقد رواه النسائي، فإن العارفين بالحديث يقولون إنه عمدتهم في هذه المسألة ولا حجة فيه، فإن ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أظهر دلالة على نفي قراءتها من دلالة هذا على الجهر بها؛ فإن في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال الله: حمدي عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ قال: أثني علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدي عبدي - أو قال فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: فهو لاء لعبدي ولعبدي ما سأل»، وقد روى عبد الله بن زياد بن سمعان - وهو كذاب - أنه قال: في أوله «فإذا قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال ذكرني عبدي»، ولهذا اتفق أهل العلم على كذب هذه الزيادة وإنما كثر الكذب في أحاديث الجهر؛ لأن الشيعة ترى الجهر وهم أكذب الطوائف فوضعوا في ذلك أحاديث لبسوا بها على الناس دينهم؛ ولهذا يوجد في كلام أئمة السنة من الكوفيين كسفيان الثوري أنهم يذكرون من السنة المسح على الخفين وترك الجهر بالبسملة كما يذكرون تقديم أبي بكر وعمر ونحو ذلك؛ لأن هذا كان من شعار الرافضة، ولهذا ذهب أبو علي بن أبي هريرة أحد الأئمة من أصحاب الشافعي إلى ترك الجهر بها قال: لأن الجهر بها صار من شعار المخالفين كما ذهب من ذهب من أصحاب الشافعي إلى تسنمة القبور؛ لأن التسطیح صار من شعار أهل البدع، فحديث أبي هريرة دليل على أنها ليست من القراءة الواجبة ولا من القراءة المقسومة وهو على نفي القراءة مطلقا أظهر من دلالة حديث نعيم المجر على الجهر؛ فإن في حديث نعيم المجر أنه قرأ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ أم القرآن وهذا دليل على أنها ليست من القرآن عندهم وحديث أبي هريرة الذي في مسلم يصدق ذلك فإنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج؛ فهي خداج» فقال له رجل: يا أبا هريرة - أنا أحيانا أكون وراء الإمام فقال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث، وهذا صريح في أن أم القرآن التي يجب قراءتها في الصلاة عند أبي هريرة المقسومة التي ذكرها مع دلالة قول النبي ﷺ على ذلك؛ وذلك ينفي وجوب قراءتها عند أبي هريرة فيكون أبو هريرة وإن كان قرأ بها؛ قرأ بها استحبابا لا وجوبا، والجهر بها مع كونها ليست من الفاتحة قول لم يقل به أحد من الأئمة الأربعة؛ وغيرهم من الأئمة المشهورين؛ ولا أعلم به قائلًا؛ لكن هي من الفاتحة وإيجاب قراءتها مع المخافة بها قول طائفة من أهل الحديث؛ وهو إحدى الروايتين عن أحمد؛ وإذا كان أبو هريرة إنما قرأها استحبابا لا وجوبا؛ وعلى هذا القول لا تشرع المداومة على الجهر بها؛ كان جهره بها أولى أن يثبت دليلا على أنه ليعرفهم استحباب قراءتها؛ وأن قراءتها مشروعة؛ كما جهر عمر بالاستفتاح: وكما جهر ابن عباس بقراءة فاتحة الكتاب على الجنابة؛ ونحو ذلك؛ ويكون أبو هريرة قصد تعريفهم أنها تقرأ في الجملة؛ وإن لم يجهر بها وحينئذ فلا يكون هذا مخالفا لحديث أنس الذي في الصحيح؛ وحديث عائشة الذي في الصحيح؛ وغير ذلك، هذا إن كان الحديث دالا على

أنه جهر بها؛ فإن لفظه ليس صريحا بذلك من وجهين: أحدهما أنه قال قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ أم القرآن، ولفظ القراءة محتمل أن يكون قرأها سرا ويكون نعيم علم ذلك بقربه منه؛ فإن قراءة السر إذا قويت يسمعها من يلي القارئ ويمكن أن أبا هريرة أخبره بقراءتها وقد أخبر أبو قتادة بأن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة وفي الأخيرتين بفاتحة الكتاب وهي قراءة سر كيف وقد بين في الحديث أنها ليست من الفاتحة فأراد بذلك وجوب قراءتها فضلا عن كون الجهر بها سنة فإن النزاع في الثاني أضعف، الثاني أنه لم يخبر عن النبي ﷺ أنه قرأها قبل أم الكتاب، وإنما قال في آخر الصلاة: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ وفي الحديث أنه أمن وكبر في الخفض والرفع، وهذا ونحوه مما كان يتركه الأئمة فيكون أشبههم برسول الله ﷺ من هذه الوجوه التي فيها ما فعله رسول الله ﷺ وتركوه هم ولا يلزم إذا كان أشبههم بصلاة رسول الله ﷺ أن تكون صلاته مثل صلاته من كل وجه، ولعل قراءتها مع الجهر أمثل من ترك قراءتها بالكلية عند أبي هريرة؛ وكان أولئك لا يقرءونها أصلا؛ فيكون قراءتها مع الجهر أشبه عنده بصلاة رسول الله ﷺ وإن كان غيره ينازع في ذلك، وأما حديث المعتمر بن سليمان عن أبيه؛ فيعلم أولا: أن تصحيح الحاكم وحده وتوثيقه وحده لا يوثق به فيما دون هذا؛ فكيف في مثل هذا الموضوع الذي يعارض فيه بتوثيق الحاكم، وقد اتفق أهل العلم في الصحيح على خلافه ومن له أدنى خبرة في الحديث وأهله لا يعارض بتوثيق الحاكم ما قد

ثبت في الصحيح خلافه؛ فإن أهل العلم متفقون على أن الحاكم فيه من التساهل والتسامح في باب التصحيح حتى إن تصحيحه دون تصحيح الترمذي والدارقطني وأمثالهما بلا نزاع فكيف بتصحيح البخاري ومسلم، بل تصحيحه دون تصحيح أبي بكر ابن خزيمة وأبي حاتم بن حبان البستي وأمثالهما بل تصحيح الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختاره خير من تصحيح الحاكم فكتابه في هذا الباب خير من كتاب الحاكم بلا ريب عند من يعرف الحديث وتحسين الترمذي أحيانا يكون مثل تصحيحه أو أرجح وكثيرا ما يصحح الحاكم أحاديث يجزم بأنها موضوعة لا أصل لها فهذا هذا، والمعروف عن سليمان التيمي وابنه معتمر أنها كانا يجهران بالبسملة، لكن نقله عن أنس هو المنكر كيف وأصحاب أنس الثقات الأثبات يروون عنه خلاف ذلك، حتى إن شعبة سأل قتادة عن هذا قال: أنت سمعت أنسا يذكر ذلك؟ قال: نعم وأخبره باللفظ الصريح المنافي للجهر، ونقل شعبة عن قتادة ما سمعه من أنس في غاية الصحة وأرفع درجات الصحيح عند أهله إذ قتادة أحفظ أهل زمانه أو من أحفظهم وكذلك إتقان شعبة وضبطه هو الغاية عندهم، وهذا مما يرد به قول من زعم أن بعض الناس روى حديث أنس بالمعنى الذي فهمه، وأنه لم يكن في لفظه إلا قوله: «يَسْتَفْتِحُونَ الصَّلَاةَ بِ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»، ففهم بعض الرواة من ذلك نفي قراءتها فرواه من عنده فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو أبعد الناس علما برواة الحديث وألفاظ روايتهم الصريحة التي

لا تقبل التأويل وبأنهم من العدالة والضبط في الغاية التي لا تحتمل المجازفة أو أنه مكابر صاحب هوى يتبع هواه ويدع موجب العلم والدليل، ثم يقال: هب أن المعتمر أخذ صلاته عن أبيه وأبوه عن أنس وأنس عن النبي ﷺ فهذا مجمل ومحمّل؛ إذ ليس يمكن أن يثبت كل حكم جزئي من أحكام الصلاة بمثل هذا الإسناد المجمل؛ لأنه من المعلوم أن مع طول الزمان وتعدد الإسناد لا تضبط الجزئيات في أفعال كثيرة متفرقة حق الضبط؛ إلا بنقل مفصل لا مجمل وإلا فمن المعلوم أن مثل منصور بن المعتمر وحماد بن أبي سليمان والأعمش وغيرهم أخذوا صلاتهم عن إبراهيم النخعي وذويه وإبراهيم أخذها عن علقمة والأسود ونحوها وهم أخذوها عن ابن مسعود وابن مسعود عن النبي ﷺ وهذا الإسناد أجل رجالا من ذلك الإسناد وهؤلاء أخذ الصلاة عنهم أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وأمثالهم من فقهاء الكوفة، فهل يجوز أن يجعل نفس صلاة هؤلاء هي صلاة رسول الله ﷺ بهذا الإسناد حتى في موارد النزاع فإن جاز هذا كان هؤلاء لا يجهرون ولا يرفعون أيديهم إلا في تكبيرة الافتتاح ويسفرون بالفجر وأنواع ذلك مما عليه الكوفيون، ونظير هذه احتجاج بعضهم على الجهر بأن أهل مكة من أصحاب ابن جريج كانوا يجهرون وأنهم أخذوا صلاتهم عن ابن جريج وهو أخذها عن عطاء، وعطاء عن ابن الزبير وابن الزبير عن أبي بكر الصديق وأبو بكر عن النبي ﷺ، ولا ريب أن الشافعي رحمه الله أول ما أخذ الفقه في هذه المسألة وغيرها عن أصحاب ابن جريج، كسعيد بن

سالم القداح ومسلم بن خالد الزنجي لكن مثل هذه الأسانيد المجملة لا يثبت بها أحكام مفصلة تنازع الناس فيها، ولئن جاز ذلك ليكون مالك أرجح من هؤلاء فإنه لا يستريب عاقل أن الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين كانوا بالمدينة أجل قدرا وأعلم بالسنة وأتبع لها ممن كان بالكوفة ومكة والبصرة، وقد احتج أصحاب مالك على ترك الجهر بالعمل المستمر بالمدينة فقالوا: هذا المحراب الذي كان يصلي فيه رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم الأئمة وهلم جرا، ونقلهم لصلاة رسول الله ﷺ نقل متواتر كلهم شهدوا صلاة رسول الله ﷺ ثم صلاة خلفائه، وكانوا أشد محافظة على السنة وأشد إنكارا على من خالفها من غيرهم فيمتنع أن يغيروا صلاة رسول الله ﷺ وهذا العمل يقترن به عمل الخلفاء كلهم؛ من بني أمية وبني العباس فإنهم كلهم لم يكونوا يجهرون وليس لجميع هؤلاء غرض بالإطباق على تغيير السنة في مثل هذا ولا يمكن أن الأئمة كلهم أقرتهم على خلاف السنة بل نحن نعلم ضرورة أن خلفاء المسلمين وملوكهم لا يبدلون سنة لا تتعلق بأمر ملكهم، وما يتعلق بذلك من الأهواء وليست هذه المسألة مما للملوك فيها غرض، وهذه الحجة إذا احتج بها المحتج لم تكن دون تلك بل نحن نعلم أنها أقوى منها فإنه لا يشك مسلم أن الجزم بكون صلاة التابعين بالمدينة أشبه بصلاة الصحابة بها، والصحابة بها أشبه بصلاة رسول الله ﷺ أقرب من الجزم بكون صلاة شخص أو شخصين أشبه بصلاة آخر حتى ينتهي ذلك إلى النبي ﷺ، ولهذا لم

يذهب ذاهب قط إلى أن عمل غير أهل المدينة أو إجماعهم حجة وإنما تُنوزع في عمل أهل المدينة وإجماعهم: هل هو حجة أم لا؟ نزاعا لا يقصر عن عمل غيرهم، وإجماع غيرهم إن لم يزد عليه، فتبين دفع ذلك العمل عن سليمان التيمي وابن جريج وأمثالهما بعمل أهل المدينة لو لم يكن المنقول نقلا صحيحا صريحا عن أنس يخالف ذلك، فكيف والأمر في رواية أنس أظهر وأشهر وأصح وأثبت من أن يعارض بهذا الحديث المجمل الذي لم يثبت وإنما صححه مثل الحاكم وأمثاله.

ومثل هذا أيضا يظهر ضعف حديث معاوية الذي فيه أنه صلى بالصحابة بالمدينة فأنكروا عليه ترك قراءة البسمة في أول الفاتحة وأول السورة حتى عاد يعمل ذلك، فإن هذا الحديث وإن كان الدارقطني قال: إسناده ثقات، وقال الخطيب: هو أجود ما يعتمد عليه في هذه المسألة كما نقل ذلك عنه نصر المقدسي فهذا الحديث يعلم ضعفه من وجوه:

أحدها: أنه يروي عن أنس أيضا؛ الرواية الصحيحة الصريحة المستفيضة الذي يرد هذا.

الثاني: أن مدار ذلك الحديث على عبد الله بن عثمان بن خثيم وقد ضعفه طائفة وقد اضطربوا في روايته إسنادا وامتنا: كما تقدم، وذلك يبين أنه غير محفوظ.

الثالث: أنه ليس فيه إسناد متصل السماع؛ بل فيه من الضعف والاضطراب ما لا يُؤمّن معه الانقطاع أو سوء الحفظ.

الرابع: أن أنسا كان مقيماً بالبصرة ومعاوية لما قدم المدينة لم يذكر أحد علمناه أن أنسا كان معه، بل الظاهر أنه لم يكن معه.

الخامس: أن هذه القضية بتقدير وقوعها كانت بالمدينة والراوي لها أنس وكان بالبصرة وهي مما تتوافر الهمم والدواعي على نقلها، ومن المعلوم أن أصحاب أنس المعروفين بصحبته وأهل المدينة لم ينقل أحد منهم ذلك؛ بل المنقول عن أنس وأهل المدينة نقيض ذلك والناقل ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء.

السادس: أن معاوية لو كان رجع إلى الجهر في أول الفاتحة والسورة لكان هذا أيضاً معروفاً من أمره عند أهل الشام الذين صحبوه ولم ينقل هذا أحد عن معاوية؛ بل الشاميون كلهم: خلفاؤهم وعلماءهم كان مذهبهم ترك الجهر بها؛ بل الأوزاعي مذهبه فيها مذهب مالك لا يقرؤها سرا ولا جهراً، فهذه الوجوه وأمثالها إذا تدبرها العالم قطع بأن حديث معاوية إما باطل لا حقيقة له، وإما مغير عن وجهه، وأن الذي حدث به بلغه من وجه ليس بصحيح، فحصلت الآفة من انقطاع إسناده، وقيل: هذا الحديث لو كان تقوم به الحجة لكان شاذاً؛ لأنه خلاف ما رواه الناس الثقات الأثبات عن أنس وعن أهل المدينة وأهل

الشام، ومن شرط الحديث الثابت أن لا يكون شاذًا ولا معللاً، وهذا شاذ معلل إن لم يكن من سوء حفظ بعض رواته.

والعمدة التي اعتمدها المصنفون في الجهر بها ووجوب قراءتها إنما هو كتابتها في المصحف بقلم القرآن، وأن الصحابة جردوا القرآن عما ليس منه، والذين نازعوهم دفعوا هذه الحجة بلا حق كقولهم: القرآن لا يثبت إلا بقاطع ولو كان هذا قاطعاً لكفر مخالفه، وقد سلك أبو بكر بن الطيب الباقلافي وغيره هذا المسلك وادَّعَوْا أنهم يقطعون بخطأ الشافعي في كونه جعل البسمة من القرآن، معتمدين على هذه الحجة وأنه لا يجوز إثبات القرآن إلا بالتواتر ولا تواتر هنا فيجب القطع بنفي كونها من القرآن، والتحقيق: أن هذه الحجة مقابلة بمثلها فيقال لهم: بل يقطع بكونها من القرآن حيث كتبت كما قطعتم بنفي كونها ليست منه، ومثل هذا النقل المتواتر عن الصحابة بأن ما بين اللوحين قرآن فإن التفريق بين آية وآية يرفع الثقة بكون القرآن المكتوب بين لوحين المصحف كلام الله، ونحن نعلم بالاضطرار أن الصحابة الذين كتبوا المصاحف نقلوا إلينا أن ما كتبوه بين لوحين المصحف كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ لم يكتبوا فيه ما ليس من كلام الله، فإن قال المنازع: إن قطعتم بأن البسمة من القرآن حيث كتبت فكفروا النافي قيل لهم: وهذا يعارض حكمه إذا قطعتم بنفي كونها من القرآن فكفروا منازعكم، وقد اتفقت الأمة على نفي التكفير في هذا الباب مع دعوى كثير من الطائفتين القطع بمذهبه وذلك لأنه ليس كل ما كان قطعياً عند

شخص يجب أن يكون قطعياً عند غيره، وليس كل ما ادعت طائفة أنه قطعي عندها يجب أن يكون قطعياً في نفس الأمر؛ بل قد يقع الغلط في دعوى المدعي القطع في غير محل القطع، كما يغلط في سمعه وفهمه ونقله وغير ذلك من أحواله كما قد يغلط الحس الظاهر في مواضع، وحينئذ فيقال: الأقوال في كونها من القرآن ثلاثة: طرفان ووسط، الطرف الأول: قول من يقول إنها ليست من القرآن إلا في سورة النمل كما قال مالك وطائفة من الحنفية وكما قاله بعض أصحاب أحمد، مدعي أنه مذهبه أو ناقلاً لذلك رواية عنه.

والطرف المقابل له: قول من يقول إنها من كل سورة آية أو بعض آية كما هو المشهور من مذهب الشافعي ومن وافقه وقد نقل عن الشافعي أنها ليست من أوائل السور غير الفاتحة وإنما يستفتح بها في السور تبركاً بها وأما كونها من الفاتحة فلم يثبت عنه فيه دليل.

والقول الوسط: أنها من القرآن حيث كتبت وأنها مع ذلك ليست من السور بل كتبت آية في أول كل سورة، وكذلك تتلى آية منفردة في أول كل سورة كما تلاها النبي ﷺ حين أنزلت عليه سورة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وكما في قوله: «إن سورة من القرآن هي ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له؛ وهي سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»، رواه أهل السنن وحسنه الترمذي، وهذا القول قول عبد الله بن المبارك، وهو

المنصوص الصريح عن أحمد بن حنبل، وذكر أبو بكر الرازي أن هذا مقتضى مذهب أبي حنيفة عنده، وهو قول سائر من حقق القول في هذه المسألة وتوسط فيها جمع من مقتضى الأدلة وكتابتها سطرًا مفصلاً عن السورة ويؤيد ذلك قول ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾» رواه أبو داود.

وهؤلاء لهم في الفاتحة قولان هما روايتان عن أحمد.

أحدهما: أنها من الفاتحة دون غيرها تجب قراءتها حيث تجب قراءة الفاتحة. والثاني: وهو الأصح لا فرق به بين الفاتحة وغيرها في ذلك، وأن قراءتها في أول الفاتحة كقراءتها في أول السور، والأحاديث الصحيحة توافق هذا القول لا تخالفه، وحينئذ الخلاف أيضا في قراءتها في الصلاة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها واجبة وجوب الفاتحة كمذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين وطائفة من أهل الحديث بناء على أنها من الفاتحة.

والثاني: قول من يقول: قراءتها مكروهة سرا وجهرا كما هو المشهور من مذهب مالك.

والقول الثالث: أن قراءتها جائزة؛ بل مستحبة وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه، وأكثر أهل الحديث وطائفة من هؤلاء يسوي بين قراءتها وترك قراءتها، ويخير بين الأمرين معتقدين أن هذا على إحدى القراءتين، وذلك

على القراءة الأخرى، ثم مع قراءتها هل يسن الجهر أو لا يسن على ثلاثة أقوال:
 قيل: يسن الجهر بها كقول الشافعي ومن وافقه، قيل: لا يسن الجهر بها كما هو
 قول الجمهور من أهل الحديث والرأي وفقهاء الأمصار، وقيل: يخير بينهما، كما
 يروى عن إسحاق وهو قول ابن حزم وغيره، ومع هذا فالصواب أن ما لا يجهر
 به قد يشرع الجهر به لمصلحة راجحة، فيشرع للإمام أحيانا لمثل تعليم المأمومين
 ويسوغ للمصلين أن يجهروا بالكلمات اليسيرة أحيانا، ويسوغ أيضا أن يترك
 الإنسان الأفضل لتأليف القلوب واجتماع الكلمة خوفا من التنفير عما يصلح،
 كما ترك النبي ﷺ بناء البيت على قواعد إبراهيم؛ لكون قريش كانوا حديثي
 عهد بالجاهلية، وخشي تنفيرهم بذلك ورأى أن مصلحة الاجتماع والاتلاف
 مقدمة على مصلحة البناء على قواعد إبراهيم، وقال ابن مسعود - لما أكمل
 الصلاة خلف عثمان وأنكر عليه فقيل له في ذلك فقال - الخلاف شر؛ ولهذا
 نص الأئمة كأحمد وغيره على ذلك بالبسملة، وفي وصل الوتر وغير ذلك مما فيه
 العدول عن الأفضل إلى الجائر المفضول مراعاة اتلاف المأمومين، أو لتعريفهم
 السنة وأمثال ذلك) اهـ.

فوائد تتعلق بالبسملة

ويشعر الإتيان بالبسملة في مواطن كثيرة منها عند افتتاح الكتب، وجاء عن النبي ﷺ كما في الصحيحين البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كتب في كتابه إلى هرقل عن أنس: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم» الحديث.

وعند مسلم (١٧٨٤)، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما كتب الصلح بينه وبين قريش، قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما بسم الله فما ندري بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم.

وجاء عن البراء بن عازب رضي الله عنه عند مسلم (١٧٨٣)، قال لما أحصر النبي ﷺ عند البيت، صالحه أهل مكة على أن يدخلها فيقيم بها ثلاثاً، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح، السيف وقرابه، ولا يخرج بأحد معه من أهلها، ولا يمنع أحداً يمكث بها ممن كان معه، قال لعلي: «اكتب الشرط بيننا، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله تابعنك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فأمر علياً أن يمحاها، فقال علي: لا والله، لا أمحاها، فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها»، فأراه مكانها فمحاها، وكتب ابن عبد الله، فأقام بها ثلاثة أيام، فلما أن كان يوم

الثالث قالوا لعلي: هذا آخر يوم من شرط صاحبك، فأمره فليخرج فأخبره بذلك، فقال: «نعم» فخرج.

وفي كتاب النبي ﷺ إلى بني أقيش عند أحمد (٢٣٠٧٧) عن يزيد بن عبد الله بن الشخير قال: كنا بهذا المربد بالبصرة قال: فجاء أعرابي معه قطعة أديم، أو قطعة جراب، فقال: هذا كتاب كتبه لي النبي ﷺ، قال أبو العلاء: فأخذته فقرأته على القوم، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني زهير بن أقيش: إنكم إن أقمت الصلاة، وأديتم الزكاة، وأعطيتم من المغنم الخمس وسهم النبي والصفى، فأنتم آمنون بأمان الله، وأمان رسوله»، قال: قلنا: ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته يقول: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر يذهبن وحر الصدر».

وقص الله تعالى في القرآن أن سليمان عليه السلام لما كتب إلى ملكة اليمن قال:

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: ٣٠].

وعند إتيان الرجل أهله، قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان، ولم يسلط عليه»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في البخاري (٣٢٨٣)، ومسلم (١٤٣٤)، وبوب عليه البخاري في صحيحه؛ (باب ذكر الله عند الوقاع وغيره).

وعند الخروج من البيت لما صح عن أم سلمة وأنس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من بيته قال: «بسم الله توكلت على الله» رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٧).

وعند ركوب الدابة لما صح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعن علي بن ربيعة، قال: شهدت عليا، أتى بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب، قال: «بسم الله» ثلاثا، فلما استوى على ظهرها، قال: «الحمد لله»، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، ثم قال: «الحمد لله» ثلاثا، «الله أكبر» ثلاثا، «سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت، ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال: «إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك»، أخرجه أبو داود (٢٦١٢)، والترمذي (٢٤٤٣).

وقال تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمْرَتُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٤١] [هود: ٤١].

وعند دخول البيت لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عند مسلم (٢٠١٨)، قال رضي الله عنه: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله

وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء، وإذا دخل، فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء».

وعند الطعام والشراب ولحديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا غلام سم الله وكل بيمينك، وكل مما يليك»، البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢)، ولحديث حذيفة رضي الله عنه عند مسلم (٢٠١٧) قال: كنا إذا حضرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم طعاما لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضع يده، وإنا حضرنا معه مرة طعاما، فجاءت جارية كأنها تدفع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدها، ثم جاء أعرابي كأنما يدفع فأخذ بيده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده، والذي نفسي بيده، إن يده في يدي مع يدها».

وعند إغلاق الأبواب لحديث جابر رضي الله عنه في مسلم (٢٠١٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح بابا، ولا يكشف إناء، فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عودا، ويذكر اسم الله، فليفعل، فإن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم».

وعند النوم كما صح عن النبي ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفذ فراشه بداخلة إزاره، وليتوسد يمينه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، اللهم إن أمسكتها فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما حفظت به عبادك الصالحين»، مكن حديث أبي هريرة رضي الله عنه في البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

وعند القيام من النوم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «باسمك أموت وأحيا» من حديث حذيفة رضي الله عنه عند البخاري (٦٣١٢)، وعن البراء في مسلم (٢٧١١).

وعند الصباح والمساء، لما صح من حديث عثمان رضي الله عنه بن عفان قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء، في الأرض، ولا في السماء، وهو السميع العليم، ثلاث مرات، لم تصبه فجأة بلاء، حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات، لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي»، عند أبي داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٩).

وعند العلاج وغير ذلك، لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا جاءه الرجل فيه الجرح بلل إصبعه ثم وضعها في التراب ثم وضعها على مكان الألم ثم قال صلى الله عليه وسلم: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك باسم الله أرقيك»، من حديث أبي سعيد عند مسلم (٢١٨٦)، ومن حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكأ إلى رسول الله

وجعا يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل باسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، عند مسلم (٢٢٠٢)، (٣٥٢٢)، ولما جاء جبرائيل، أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد اشتكيت؟ قال: «نعم»، قال: «بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين، أو حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك»، منه حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٥٢٣)، ومسند أحمد (١١٢٢٥).

وعند إرسال الرسل وتوديع الأصحاب والإخوان لما صح عن النبي ﷺ من حديث بريدة رضي الله عنه: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا و لا تغلوا و لا تغدروا و لا تمثلوا و لا تقتلوا وليدا»، مسلم (١٧٣١).

وعند الرمي لما جاء من حديث صهيب رضي الله عنه، أن ذلك الغلام لما عجز عن قتله قال: «إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب

الغلام، ثم رماه فوق السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات»، مسلم (٣٠٠٥).

وعند إرسال الكلب المعلم، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ لِمَا طَبَخْتُمْ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]، وقال الرسول ﷺ: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك، فإن أكل فلا تأكل، فإنها أمسك على نفسه»، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه عند البخاري (١٧٥)، ومسلم (١٩٢٩)، وقال: «إذا رميت سهمك، فاذا ذكر اسم الله، فإن وجدته قد قتل فكل، إلا أن تجده قد وقع في ماء، فإنك لا تدري الماء قتله أو سهمك»، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه عند مسلم (١٩٢٩).

ولما نحر النبي أضحيته قال: «من كان ذبح أضحيته قبل أن يصلي -أو نصلي-، فليذبح مكانها أخرى، ومن كان لم يذبح، فليذبح باسم الله»، من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه عند مسلم (١٩٦٠)، وما لم يذكر اسم الله عليه حال التذكية لا يجوز أكله بحال قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَنَتِهِ مُؤْمِنِينَ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨ - ١١٩].

قال الشوكاني في فتح القدير: نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك، فذهب ابن عمر، ونافع مولاه وهو الشعبي وابن سيرين وهو رواية عن مالك وعن أحمد بن حنبل وبه قال أبو ثور وداود الظاهري، أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسي لهذه الآية ولقوله تعالى في آية الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً قوله سبحانه في هذه الآية ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة، والأمر بالتسمية في الصيد وغيره، وذهب الشافعي وأصحابه، وهو رواية مالك، ورواية عن أحمد: أن التسمية مستحبة لا واجبة، وهو مروى عن ابن عباس، وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله، وهو تخصيص للآية بغير مخصص، وقد روى أبو داود في المرسل أن النبي ﷺ قال: «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر»، وليس في هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: إن قوماً يأتوننا بلحمان لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «اذكروا أنتم اسم الله، وكلوا»، رواه البخاري (٧٣٩٨)، يفيد أن

التسمية عند الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح، وذهب مالك، وأحمد في المشهور عنهما، وأبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه، أن التسمية إن تركت نسيانا لم تضر، وإن تركت عمدا لم يحل أكل الذبيحة، وهو مروى عن علي وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد وربيعة بن أبي عبد الرحمن، واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «المسلم إن نسي أن يسمي حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله»، وهذا الحديث رفعه خطأ، وإنما هو من قول ابن عباس، وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن المنذر، نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، كما سبق تقريره، ويقوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»، وأما حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن عدي أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟، فقال النبي ﷺ: «اسم الله على كل مسلم»، فهو حديث ضعيف، قد ضعفه وغيره. انتهى

وعند السقوط والتعثر، فعن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ، فعثرت دابة، فقلت: تعس الشيطان، فقال: «لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي،

ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب»، عند أبي داود (٤٩٨٢)، ومسنند أحمد (٢٠٥٩١).

ولما قطعت إصبع طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: حسّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون»، رواه النسائي (٣١٣٩).

هذه بعض المواطن التي تشرع فيها التسمية، وهناك مواطن أخرى لمن أراد التقصّي، ونسأل الله العون والسداد، ومنها ما تكون التسمية عليه واجبة ومنها ما تكون مستحبة، على تفصيل في كتب الفقه، والله أعلم.

قوله: ﴿بِسْمِ﴾

الباء للاستعانة، وقيل للمصاحبة، والأول أظهر وأشتهر، إذ أن العبد يسمي الله تعالى متبركا بذكره مستعينا به في تيسير أمره و تفرج كربه، والاسم مشتق من السمو الذي هو العلو، وقيل من السمّة، والأول أظهر، لأنه يجمع على أسماء ويصغر على سُمَيّ، ولو كان مشتقا من السمّة لجمع على سمات، ويصغر على سُمَيّة، وهل الخلاف في هذا عقدي أم فقط نحوي، وعلى الصحيح فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الخلاف عقدي.

قال الراغب في "المفردات": (والاسم ما يعرف به ذات الشيء، وأصله سَمُو، بدلالة قولهم أسماء، وسُمَيّ وأصله من السمو، وهو الذي به رفع ذكر المسمى فيعرف به). اهـ

وقال شيخ الإسلام القرطبي رحمته الله في تفسيره: (اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين، فقال البصريون: هو مشتق من السمو وهو العلو والرفعة، فقيل: اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به، وقيل لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره، وقيل إنها سمي الاسم اسما لأنه علا بقوته على قسمي الكلام: الحرف والفعل، والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل، فلعلوه عليها سُمي اسما فهذه ثلاثة أقوال، وقال الكوفيون: إنه مشتق من السمّة وهي العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، فأصل اسم على هذا "وسم"، والأول أصح، لأنه

يقال في التصغير سُمِّيَ وفي الجمع أسماء، والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها، فلا يقال: وسيم ولا أوسام، ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي: الثامنة عشر فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول: لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسائه ولا صفاته، وهذا قول أهل السنة، ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول: كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فإذا أفناهم بقي بلا اسم ولا صفة، وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم في الخطأ من قولهم: إن كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك) اهـ.

﴿الله﴾

لفظ الجلالة؛ وهو علم على الذات العلية، وهو أعرف المعارف، والاسم الأعظم على الصحيح، وهو مشتق من الإله، وهو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، أفاده ابن القيم **رحمته**.

والتأله هو التعبد، قال رؤبة :

لله دُرُّ الغايات المدَّة سَبَّحْنِ واسترجعن من تألَّهي

أي من تعبدي، وكل الأسماء الحسنى عائدة إليه وتابعة له؛ إذ لم يأت تابعا قط، وأما قول الله **عز وجل** في سورة إبراهيم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ﴾، فهذا من عطف البيان لا النسق، فإن ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هو الله تعالى، وهو دال على الذات العلية بالمطابقة، ودال على الذات والصفة بالتضمن، ودال على جميع الصفات بالالتزام، إذ أن الإله هو السميع البصير الحي القدير المتكلم المتصف بجميع صفات الجمال والكمال والعظمة، قال ابن القيم: (وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى) اهـ، من البدائع.

قال القرطبي في تفسيره: (هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، لذلك لم يُشَنَّ ولم يجمع،

وهو أحد تأويلي قوله تعالى ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي من تسمّى باسمه الذي هو ﴿اللَّهُ﴾ فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه، وقيل: معناه الذي يستحق أن يعبد، وقيل: معناه واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال، والمعنى واحد) اهـ.

قال ابن القيم رحمته الله في "المدارج" (١/٤١): (اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] ويقال: الرحمن والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزیز، والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك.

فَعَلِمَ أن اسمه الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله، واسم الله دال على كونه مألوها معبودا، تؤله الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا، وفزعا إليه في الحوائج والنوائب) اهـ.

وقال ابن كثير **رحمته**: ﴿الله﴾ علم على الرب تبارك وتعالى، يقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي خَلَقَ الْبَارِيءَ الْمُصَوِّرَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٤) ﴿[الحشر: ٢٢- ٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وفي الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله **صلى الله عليه وسلم** قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة»، وجاء تعدادها في رواية الترمذي، وابن ماجه وبين الروايتين اختلاف زيادات ونقصان، وقد ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم: ألف في الكتاب والسنة الصحيحة، وألف في التوراة، وألف في الإنجيل، وألف في الزبور، وألف في اللوح المحفوظ.

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى؛ ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل ويفعل، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له.

وقد نقل القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم، وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة.

قال الخطابي: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام. وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج:

لله در الغانيات المده سبحن واسترجعن من تألهي

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التآله، من آله يأله إلهة وتألها، كما روي أن ابن عباس قرأ: ﴿وَيَذَرِكْ وَإِلَاهَتِكَ﴾، قال: عبادتك، أي: أنه كان يعبد ولا يعبد، وكذا قال مجاهد وغيره.

وقد استدل بعضهم على كونه مشتقا بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، أي: المعبود في السماوات والأرض، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ونقل سيبويه عن الخليل: أن أصله: إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة، قال سيبويه: مثل الناس، أصله: أناس، وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه.

قال الشاعر:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب عني ولا أنت دياني فتخزونى

قال القرطبي: بالخاء المعجمة، أي: فتسوسني، وقال الكسائي والفراء:

أصله: الإله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية، كما قال: ﴿لَكِنَّا هُوَ

اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨]، أي: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن، قال القرطبي:

ثم قيل: هو مشتق من وله: إذا تحير، والوله ذهاب العقل؛ يقال: رجل واله،

وامرأة ولهى، وماء موله: إذا أرسل في الصحاري، فالله تعالى تتحير أولو

الألباب والفكر في حقائق صفاته، فعلى هذا يكون أصله: ولاه، فأبدلت الواو

همزة، كما قالوا في وشاح: أشاح، ووسادة: أسادة، وقال فخر الدين الرازي:

وقيل: إنه مشتق من ألهمت إلى فلان، أي: سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى

ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره قال

الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، قال: وقيل: من

لاه يلوه: إذا احتجب.

وقيل: اشتقاقه من أله الفصيل، إذ ولع بأمه، والمعنى: أن العباد مألوهون

مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال، قال: وقيل: مشتق من أله الرجل يأله:

إذا فزع من أمر نزل به فأله، أي: أجاره، فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار

هو الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]،

وهو المنعم لقوله: ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وهو المطعم لقوله: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤]، وهو الموجد لقوله: ﴿ قُلْ كُلُّ مَن عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم غير مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه: منها: أنه لو كان مشتقا لاشترك في معناه كثيرون.

ومنها: أن بقية الأسماء تذكر صفات له، فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل أنه ليس بمشتق، قال: فأما قوله تعالى: ﴿ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان.

ومنها قوله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامدا غير مشتق نظر، والله أعلم.

وحكى فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلى أن اسم الله تعالى عبراني لا عربي، ثم ضعفه، وهو حقيق بالتضعيف كما قال، وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال: واعلم أن الخلق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الحيرة وتيه الجهالة؛ فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم، وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء

والجلال، فتاهوا في ميادين الصمدية، وبادوا في عرصة الفردانية، فثبت أن الخلق كلهم والهون في معرفته، وروي عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يأهون إليه بنصب اللام وجرها لغتان، وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهأ، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت.

وأصل ذلك الإله، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعريف فأدغمت إحداهما في الأخرى، فصارتا في اللفظ لاما واحدة مشددة، وفخمت تعظيها، فقيل: الله(اه).

والصحيح من أقوال أهل العلم أنه مشتق على ما رجحه ابن القيم في "بدائع الفوائد" وغيره من كتبه، وليس المراد بالاشتقاق اشتقاق الأصل من الفرع كما ظنه السهيلي وغيره؛ ولكن الاشتقاق المراد به من حيث المعنى.

والكلام على هذا الاسم يطول نظرا لمنزلته الرفيعة في كونه علم على الذات العلية المتصفة بكل كمال، والمنتزه عن كل نقص، ويذكر الله ﷻ به، فتقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي الله، وأستغفر الله، وسبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم، وأكثر الأدعية به فتقول ﴿اللَّهُمَّ﴾، أو يا ﴿اللَّهُ﴾، إلى غير ذلك.

وهو من الأسماء المختصة بالله تعالى فلا يجوز أن يسمى به غيره بحال.
 وكان أهل الجاهلية يعرفون هذا الاسم، فقد الله ﷻ علينا في كثير من آيات القرآن ما يدل على ذلك فمنها ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾، وقال الله ﷻ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال تعالى مخبرا عنهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، إلى غير ذلك لكنهم لم يفرده بالعبادة، بل أشركوا معه غيره، ففي مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت، وكانوا يقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «قد، قد»، فيقولون: إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

الحكمة من جعل التسمية متعلقة باسم الله ﷻ دون غيره من الأسماء؛ فلا تقل باسم الجبار ولا باسم العظيم ونحوه، وإنما بسم الله، وذلك لما تقدم من خصائص هذا الاسم العظيم ولأنه اسم جامع لما سواه، ولأنه أشهر وأظهر اسم تُسَمَّى الله ﷻ به.

قال ابن القيم رحمته الله في كلامه عن سورة الفاتحة في "مدارج السالكين":
 (اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتغال، وتضمنها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة

أسماء، مرجع الأسماء الحسنی والصفات إليها، ومدارها عليها، وهي الله والرب والرحمن) اهـ.

وزد على ما تقدم أن كثيرا من أسماء الله ﷻ تذكر في مقام الوصف مع دلالتها على العلمية، بينما هذا الاسم متمحض في العلمية مع دلالة على الوصفية، وقلنا ذلك لأنك حين تصف الله ﷻ تقول: الله الرحمن الرحيم الملك، وهكذا والله أعلم.

ونزيد عليه كونه مشتق من الإله، والإله هو العظيم الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، والذي بيده تصريف الأمر فيطلب العون منه، وبالاسم الأخص في ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ

تَعْمُرُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ

وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ

مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُرُونَ ﴿٨٨﴾

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

اسمان جليلان من الأسماء الحسنی، و﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسم مختص من أسماء الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو مشتق من الرحمة، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرحم شجنة من الرحمن»، وقد كان معلوما قبل البعثة، ففي أشعار المشركين:

ألا قُضِبَ الرحمن ربي يمينها

وأما قولهم ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ فهو من باب المكابرة، أو أن بعضهم كان لا يعرفه، والأول أظهر.

واسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على وزن فعلان، وزيادة المباني تدل على زيادة المعاني، وهو من الأسماء التي عليها مدار الأسماء الحسنی كما تقدم، ويأتي تابعا ويأتي متمحضا في الاسمية.

قال ابن القيم رحمته الله في "بدائع الفوائد": (استبعد قوم أن يكون الرحمن نعنا لله تعالى؛ من قولنا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقالوا الرحمن علم والأعلام لا ينعت بها ثم قالوا: هو بدل من اسم الله قالوا: ويدل على هذا أن الرحمن علم مختص بالله تعالى لا يشاركه فيه غيره فليس هو كالصفات التي هي العليم القدير والسميع والبصير ولهذا تجري على غيره تعالى قالوا ويدل عليه أيضا

وروده في القرآن غير تابع لما قبله كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾﴾،
 و﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾، و﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ
 الرَّحْمَنِ ﴿٣﴾﴾، وهذا شأن الأسماء المحضة لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون
 الموصوف، قال السهيلي: والبدل عندي فيه ممتنع وكذلك عطف البيان لأن
 الاسم الأول لا يفتقر إلى تبيين فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها ولهذا قالوا: وما
 الرحمن ولم يقولوا وما الله ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام فهو وصف يراد به
 الثناء وكذلك الرحيم إلا أن الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه وإنما دخله
 معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية فإن التثنية في الحقيقة
 تضعيف وكذلك هذه الصفة فكأن غضبان وسكران كامل لضعفين من
 الغضب والسكر فكان اللفظ مضارعا للفظ التثنية لأن التثنية ضعفان في
 الحقيقة ألا ترى أنهم أيضا قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشيئين
 متلازمين فقالوا الحكماء والعلماء وأعربوا النون كأنه اسم شيء واحد فقالوا
 اشترك باب فعلان وباب التثنية ومنه قول فاطمة يا حسنان يا حسينان برفع
 النون لابنيها ولمضارعة التثنية امتنع جمعه فلا يقال غضباين وامتنع تأنيثه فلا
 يقال غضبانة وامتنع تنوينه كما لا تنون نون المثني فجرت عليه كثير من أحكام
 التثنية لمضارعة إيها لفظا ومعنى وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم
 الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة تم كلامه قلت: أسماء الرب
 تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية

والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم ولما كان هذا الاسم مختصا به تعالى حسن مجيئه مفردا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالة على صفة الرحمن كاسم الله تعالى فإنه دال على صفة الألوهية ولم يجيء قط تابعا لغيره بل متبوعا وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعا وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل فالأول دال أن الرحمة صفته والثاني دال أنه يرحم خلقه برحمته وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ولم يجيء قط رحمن بهم فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب(أهـ).

قال ابن جرير الطبري **رحمته**: (وأما ﴿الرَّحْمَنُ﴾، فهو فعلان، من رَحِمَ، و﴿الرَّحِيمِ﴾ فعيل منه، والعرب كثيرا ما تبني الأسماء من "فَعِلَ يَفْعَلُ" على

"فعلان"، كقولهم من غَضِبَ من غَضبان، ومن سَكَرَ: سكران، ومن عَطَشَ: عطشان. فكذلك قولهم "رَحِمَ" من رَحِمَ، لأن "فَعَلَ" منه: رَحِمَ يَرْحِمُ، وقيل "رحيم"، وإن كانت عَيْنُ "فَعَلَ" منها مكسورة، لأنه مدح، ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء - إذا كان فيها مدح أو ذم - على "فَعِيل"، وإن كانت عين "فَعَلَ" منها مكسورة أو مفتوحة، كما قالوا من "علم" عالم وعليم، ومن "قَدَرَ" قادر وقدير، وليس ذلك منها بناء على أفعالها، لأن البناء من "فَعَلَ" يَفْعَلُ" و "فَعَلَ يَفْعَلُ" فاعلٌ، فلو كان ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ خارجين عن بناء أفعالها لكانت صورتها "الراحم".

فإن قال قائل: فإذا كان الرحمن والرحيم اسمين مشتقين من الرحمة، فما وجه تكرير ذلك، وأحدهما مؤدٌّ عن معنى الآخر؟

قيل له: ليس الأمر في ذلك على ما ظننت، بل لكل كلمة منها معنى لا تؤدي الأخرى منها عنها.

فإن قال: وما المعنى الذي انفردت به كل واحدة منهما، فصارت إحداهما غير مؤدية المعنى عن الأخرى؟

قيل: أما من جهة العربية، فلا تمنع بين أهل المعرفة بلغات العرب، أن قول القائل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ - عن أبنية الأسماء من "فَعَلَ يَفْعَلُ" - أشدُّ عدولا من قوله ﴿الرَّحِيمُ﴾، ولا خلاف مع ذلك بينهم، أن كل اسم كان له أصل في

"فَعَلَّ يَفْعَلُ" - ثم كان عن أصله من "فَعِلَّ يَفْعَلُ" أشد عدولا - أن الموصوف به مفضّل على الموصوف بالاسم المبني على أصله من "فَعِلَّ يَفْعَلُ"، إذا كانت التسمية به مدحًا أو ذمًا. فهذا ما في قول القائل ﴿الرَّحْمَنِ﴾، من زيادة المعنى على قوله ﴿الرَّحِيمِ﴾ في اللغة.

وأما من جهة الأثر والخبر، ففيه بين أهل التأويل اختلاف:

فحدثني السري بن يحيى التميمي، قال: حدثنا عثمان بن زفر، قال: سمعت العرزمي يقول: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال: الرحمن بجميع الخلق، الرَّحِيمِ، قال: بالمؤمنين.

حدثنا إسماعيل بن الفضل، قال: حدثنا إبراهيم بن العلاء، قال: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مُليكة، عن عمن حدثه، عن ابن مسعود - ومسعر بن كدام، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد - يعني الخدري - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَالَ: الرَّحْمَنُ رَحْمَنُ الْآخِرَةِ وَالدُّنْيَا، وَالرَّحِيمُ رَحِيمُ الْآخِرَةِ»، قلت: عطية ضعيف.

فهذان الخبران قد أنبأ عن فرق ما بين تسمية الله جل ثناؤه باسمه الذي هو ﴿الرَّحْمَنِ﴾، وتسميته باسمه الذي هو ﴿الرَّحِيمِ﴾، واختلاف معنى الكلمتين - وإن اختلفا في معنى ذلك الفرق، فدّل أحدهما على أن ذلك في الدنيا، ودل الآخر على أنه في الآخرة.

فإن قال: فأى هذين التأويلين أولى عندك بالصحة؟ قيل: لجميعهما عندنا في الصحة مخرج، فلا وجه لقول قائل: أيهما أولى بالصحة؟ وذلك أن المعنى الذي في تسمية الله بالرحمن، دون الذي في تسميته بالرحيم: هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال.

فلا شك - إذا كان ذلك كذلك - أن ذلك الخصوص الذي في وصفه بالرحيم لا يستحيل عن معناه، في الدنيا كان ذلك أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً.

فإذا كان صحيحاً ما قلنا من ذلك - وكان الله جل ثناؤه قد خصَّ عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به وبرسله، واتباع أمره واجتناب معاصيه، مما خُذِلَ عنه من أشرك به، وكفر وخالف ما أمره به، وركب معاصيه؛ وكان مع ذلك قد جعلَ، جَلَّ ثناؤه، ما أعد في آجل الآخرة في جناته من النعيم المقيم والفوز المبين، لمن آمن به، وصدَّق رسله، وعمل بطاعته، خالصاً، دون من أشرك وكفر به - كان بيئاً إن الله قد خص المؤمنين من رحمته في الدنيا والآخرة، مع ما قد عمَّهم به والكفار في الدنيا من الإفضال والإحسان إلى جميعهم، في البسط في الرزق، وتسخير السحاب بالغيث، وإخراج النبات من الأرض، وصحة الأجسام والعقول، وسائر النعم التي لا تُحصى، التي يشترك فيها المؤمنون والكافرون.

فربُّنا جل ثناؤه رحمنٌ جميع خلقه في الدنيا والآخرة، ورحيمُ المؤمنين خاصةً في الدنيا والآخرة. فأما الذي عمَّ جميعهم به في الدنيا من رحمته فكان رحمانًا لهم به، فما ذكرنا مع نظائره التي لا سبيل إلى إحصائها لأحد من خلقه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

وأما في الآخرة، فالذي عمَّ جميعهم به فيها من رحمته، فكان لهم رحمانًا، تسويته بين جميعهم جل ذكره في عدله وقضائه، فلا يظلم أحدًا منهم مثقال ذرة، وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا، وتؤتي كل نفسٍ ما كَسَبَتْ. فذلك معنى عمومته في الآخرة جميعهم برحمته، الذي كان به رحمانًا في الآخرة.

وأما ما خص به المؤمنين في عاجل الدنيا من رحمته، الذي كان به رحيمًا لهم فيها، كما قال جل ذكره: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣]، فما وصفنا من اللطف لهم في دينهم، فخصَّهم به، دون من خذله من أهل الكفر به.

وأما ما خصَّهم به في الآخرة، فكان به رحيمًا لهم دون الكافرين، فما وصفنا أنفًا مما أعدَّ لهم دون غيرهم من النعيم، والكرامة التي تقصر عنها الأمانى) اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، كما تقدم في الأثر، عن عيسى عليه السلام، أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وحكى ابن الأنباري في الزاهر عن المبرد: أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي، وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربي، والرحمن عبراني، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه.

وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»، قال: وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق.

قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبها وجب له.

قال القرطبي: هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد، وقيل: ليس ببناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل

غضبان، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو علي الفارسي: الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة، ثم حكى عن الخطابي وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرقق كما جاء في الحديث: «إن الله رقيق يحب الرفق في الأمر كله وإنه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي صالح^(١) الفارسي الخوزي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يسأل الله يغضب عليه»، وقال بعض الشعراء:

لا تطلبن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تغلق

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

قال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زفر، سمعت العرزمي يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين، قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ﴾ [الفرقان: ٢٦]

(١) قال الحافظ: لين الحديث.

[٥٩]، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما^(١).

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾، ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلاباب الكذب وشهر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرة من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكد به، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد، وإنما هو من باب النعت بعد النعت، ولا يلزم فيه ما ذكره، وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢/ ٤٨١)، وفيه الحكم بن عبد الله الأيلي؛ متروك.

أَلْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿ [الإسراء: ١١٠] ، وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة.

وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨] ، كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢] .

والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتداء بالأخص فالأخص.

فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة؛ فهلا اكتفي به عن الرحيم؟ فقد روي عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]، والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن.

قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجاهال:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها

وقال سلامة بن جندب الطهوي:

عجلتم علينا عجلتينا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، الرقيق

الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها.

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مسعدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى) اهـ.

قال ابن القيم رحمته في "مختصر الصواعق" (٢/ ٣٤١): (ورود الرحمن في أسماؤه أكثر من ورود الرحيم.

ولهذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] ، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥] ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ٣٧] ، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١ - ٢] اهـ.

وقال أيضا (٢/ ٣٤٤): (ما رواه أهل السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه «قال: يقول الله تعالى: «أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» ، فهذا صريح في أن اسم الرحمة مشتق من

اسمه الرحمن تعالى، فدل على أن رحمته لما كانت هي الأصل في المعنى كانت هي الأصل في اللفظ) اهـ.

قال القرطبي **رحمته**: ﴿فَ الرَّحْمَنُ﴾ خاص الاسم عام الفعل، و﴿الرَّحِيمُ﴾ عام الاسم خاص الفعل) اهـ.

وقرن الله بينهما في هذا الموضع وغيره لأن لهما عبودية تخصهما؛ وهي شهود عموم رحمته وسعتها لكل شيء، وَمَنْعَتُهَا لكل مخلوق، وأخذ كل موجود بنصيب منها، ولا سيما الرحمة الخاصة التي أقامت عبده بين يديه في خدمته يناجيه بكلامه ويتملقه ويسترحمه ويسأله هدايته ورحمته وإتمام نعمته عليه، فهذا من رحمته لعبده، فرحمته وسعت كل شيء، كما أن عبده وسع كل شيء، انتهى من كلام ابن القيم **رحمته**.

وهذه الحكمة العظيمة الجليلة التي تظهر لي في جعل هذين الاسمين في البسملة، فإن الإنسان حين يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنه يتوسل إلى الله **عَبْدًا** في عونه على ما يؤمله ويرجوه بألوهيته ورحمته التي وسعت كل شيء، وفي ذلك التوسلات ما يكون أدعى لقضاء الحاجات وتفريج الكربات واستجابة الدعوات.

وقال ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/٤٢-٤٣) في تكرار اسم الجلالة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ في فاتحة الكتاب: (وكرر إيدانا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن الذي الرحمة وصفه، والرحيم الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ: رحمن بعباده، ولا رحمن بالمؤمنين، مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلى غضبا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرا، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش إن رحمتي تغلب غضبي»، وفي لفظ «فهو عنده على العرش» .

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعها عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلَ بِهِ خَيْرًا﴾ ﴿٥٩﴾ [الفرقان: ٥٩]، يفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم) اهـ..

ورحمات الله بعباده عظيمة وجليلة، ولا عد لها ولا حصر إذ أن نعمه من رحمته، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾، ومع ذلك من أجل نعمه إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن القيم في كتاب "الصلاة وأحكام تاركها" (١٧٣) في كلامه على المصلي: (يشهد عند ذكر اسم الرحمن ﷻ ربا محسنا إلى خلقه بأنواع الإحسان متحيا إليهم بصنوف النعم، وسع كل شيء رحمة وعلما، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلا فوسعت رحمته كل شيء ووسعت نعمته كل حي فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته وخلق خلقه برحمته وأنزل كتبه برحمته وأرسل رسله برحمته وشرع شرائعه برحمته وخلق الجنة برحمته والنار

أيضا برحمته فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته ويطهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه من خليقته.

فتأمل ما في أمره ونهيه ووصاياها ومواعيظه من الرحمة البالغة والنعمة السابغة وما في حشوها من الرحمة والنعمة فالرحمة هي السبب المتصل منه بعباده كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به فمنهم إليه العبودية ومنه إليهم الرحمة، ومن أخص مشاهد هذا الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربه، وأهله لعبوديته ومناجاته وأعطاه ومنع غيره وأقبل بقلبه وأعرض بقلبه غيره وذلك من رحمته به) اهـ.

وهكذا القول في ﴿الرَّحِيمِ﴾ ف﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ يدلان على ذي الرحمة المتعدية آثارها إلى المخلوق، فناسب الإتيان بهذين الاسمين مع اسم الجلالة ﴿اللَّهِ﴾ في مبدأ كل عمل، فتكون إعانة الله ﷻ لعبده من رحمته به وإعانتته على ما يريد، ويكون من العبد التعبد لله ﷻ والتضرع إليه حمدا له وشكرا على ما أولاه من النعم وأعطاه من المنن، فتظهر المناسبة لكل مبصر في الجمع بين هذه الأسماء الثلاثة ﴿اللَّهِ﴾ و﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ في هذه الكلمة العظيمة التي افتتحت بها كل سورة من القرآن، إلا ما كان من سورة ﴿بَرَاءةٌ﴾ لكلام أهل العلم في ذلك.

الحكمة في افتتاح القرآن بالبسملة

فالحكمة إذا فيما أظن وأرى والله أعلم من افتتاح القرآن بالبسملة:

أولاً: للتبرك بذكر الله ﷻ.

الثاني: الاستعانة بالله ﷻ.

الثالث: تقديم اسم الله ﷻ على من سواه.

الرابع: التحصن من الشيطان الرجيم وجنده.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا والله أعلم، السر العظيم في كون البسملة تضمنت الأسماء الثلاثة العظيمة حتى يدخل تحتها كل وصف حسن، والتنزه من كل ما يصاد ذلك، وبالله التوفيق والله أعلم.

قال ابن جرير رحمته الله في تفسيره: (إن الله تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه أدب نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنی أمام جميع أفعاله، وتقدّم إليه في وصفه بها قبل جميع مَهَمَّاته، وجعل ما أدّبه به من ذلك وعلمه إياه، منه لجميع خلقه سنةً يستنون بها، وسبيلاً يتبعونه عليها، فيها افتتاح أوائل منطقتهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، على من بطن من مراده الذي هو محذوف.

وذلك أن الباء من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مقتضية فعلا يكون لها جالبا، ولا فعل معها ظاهر، فأغنت سامع القائل ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ معرفته بمراد قائله، عن إظهار قائل ذلك مُرَادَه قولاً إذ كان كل ناطق به عند افتتاحه أمراً، قد أحضر منطقَه به - إما معه، وإمّا قبله بلا فصل - ما قد أغنى سامعَه عن دلالة شاهدة على الذي من أجله افتتح قِيلَه به، فصار استغناء سامع ذلك منه عن إظهار ما حذف منه، نظير استغناؤه - إذا سمع قائلًا قيل له: ما أكلت اليوم؟ فقال: "طعامًا" - عن أن يكرّر المسئول مع قوله "طعامًا"، أكلت، لما قد ظهر لديه من الدلالة على أن ذلك معناه، بتقدّم مسألة السائل إياه عما أكل، فمعتول إذاً أن قول أو أقرأ بتسميتي الله، أو أقوم وأقعد بتسميتي الله وذكره - لا أنه يعني بقيله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ : أقوم بالله، أو أقرأ بالله، فيكون قول القائل: أقرأ بالله، أو أقوم أو أقعد بالله - أولى بوجه الصواب في ذلك من قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾.

فإن قال: فإن كان الأمر في ذلك على ما وصفت، فكيف قيل: ﴿بِسْمِ

اللَّهِ﴾ وقد علمت أن الاسم اسم، وأن التسمية مصدر من قولك سميت؟

قيل: إن العرب قد تخرج المصادر مبهمّة على أسماء مختلفة، كقولهم: أكرمت فلاناً كرامةً، وإنما بناءً مصدر "أفعلت" - إذا أخرج على فعله - "الإفعال"، وكقولهم: أهنت فلاناً هواناً، وكلمته كلاماً، وبناءً مصدر: "فعلت" التفعيل.

ومن ذلك قول الشاعر:

أَكْفُرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِئَةَ الرَّتَاعَا

يريد: إعطائك، ومنه قول الآخر:

وَإِنْ كَانَ هَذَا الْبُحْلُ مِنْكَ سَجِيَّةً لَقَدْ كُنْتُ فِي طَوِيلِ رَجَاءِكَ أَشْعَبَا

يريد: في إطالتي رجاءك، ومنه قول الآخر:

أَظْلِمُ إِنْ مُصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظُلْمٌ

يريد: إصابتكم.

والشواهد في هذا المعنى تكثُرُ، وفيما ذكرنا كفاية، لمن وُفِّقَ لفهمه، فإذا كان الأمر - على ما وصفنا، من إخراج العرب مصادر الأفعال على غير بناء أفعالها - كثيرًا، وكان تصديرها إياها على مخارج الأسماء موجودًا فاشيًا، فبيِّنُ بذلك صوابُ ما قلنا من التأويل في قول القائل ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، أن معناه في ذلك عند ابتدائه في فعل أو قول: أبدأ بتسمية الله، قبل فعلي، أو قبل قولي.

وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ﴾، إنما معناه: أقرأ مبتدئًا بتسمية الله، أو أبتدئُ قراءتي بتسمية الله.

فجُعِلَ "الاسم" مكان التسمية، كما جُعِلَ الكلامُ مكان التكليم، والعطاءُ

مكان الإعطاء.

وبمثل الذي قلنا من التأويل في ذلك، رُوِيَ الخبر عن عبد الله بن عباس .
 حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عُمارة،
 قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أوّل ما نزل
 جبريل على محمد ﷺ قال: «يا محمد، قل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان
 الرجيم»، ثم قال: «قل: بسم الله الرحمن الرحيم».

قال ابن عباس: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، يقول له جبريل: يا محمد، اقرأ بذكر الله
 ربّك، وقم واقعد بذكر الله.

وهذا التأويل من ابن عباس ينبئ عن صحة ما قلنا - من أنه يراد بقول
 القائل مفتتحاً قراءته: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: اقرأ بتسمية الله وذكره،
 وأفتتح القراءة بتسمية الله، بأسمائه الحسنی وصفاته العُلى - ويوضح فساد قول
 من زعم أن معنى ذلك من قائله: بالله الرحمن الرحيم أوّل كلّ شيء، مع أن
 العباد إنما أمرُوا أن يبتدئوا عند فواتح أمورهم بتسمية الله، لا بالخبر عن عظّمته
 وصفاته، كالذي أمرُوا به من التسمية على الذبائح والصّيد، وعند المَطعم
 والمشرب، وسائر أفعالهم، وكذلك الذي أمرُوا به من تسميته عند افتتاح تلاوة
 تنزيل الله، وصدور رسائلهم وكتبهم.

ولا خلاف بين الجميع من علماء الأمة، أن قائلًا لو قال عند تذكّيته بعض
 بهائم الأنعام "بالله"، ولم يقل "بسم الله"، أنه مخالف - بتركه قيل: "بسم الله"

ما سُئِنَ له عند التذكية من القول، وقد عُلِمَ بذلك أنه لم يُرِدْ بقوله "بسم الله" "بالله"، كما قال الزاعم أن اسمَ الله في قول الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هو الله، لأن ذلك لو كان كما زعم، لوجب أن يكون القائل عند تذكيته ذبيحته "بالله"، قائلًا ما سُئِنَ له من القول على الذبيحة، وفي إجماع الجميع على أن قائل ذلك تارك ما سُئِنَ له من القول على ذبيحته - إذ لم يقل "بسم الله" - دليلٌ واضح على فساد ما ادَّعى من التأويل في قول القائل: "بسم الله"، أنه مراد به "بالله"، وأن اسم الله هو الله) اهـ.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره (١/١٤٢): (قال بعض العلماء: إن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تضمنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات، وهذا صحيح) اهـ.

وعدد حروف البسمة تسعة عشر حرفًا، قال القرطبي: (وقد روى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله ابن مسعود قل: من أراد أن ينجيَه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جنة من كل واحد).

فالبسمة تسعة عشر حرفًا على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، وهم يقولون في كل أفعالهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فمن هناك هي قوتهم، وببسم الله استضعفوا.

قال ابن عطية: ونظير هذا قولهم في ليلة القدر: إنها ليلة سبع وعشرين، مراعاة للفظة ﴿هِيَ﴾ من كلمات سورة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، ونظيره أيضا قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل: ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فإنها بضعة وثلاثون حرفا، فلذلك قال النبي ﷺ: «لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول».

قال ابن عطية: وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم) اهـ.

مسألة: كتابة البسملة قبل الشعر لا محذور فيه، ومن منعها فقد منعها لغير ما دليل عن معصوم.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: (اتفقت الأمة على جواز كتبها في أول كتاب من كتب العلم والرسائل، فإن كان الكتاب ديوان شعر فروى مجالد عن الشعبي قال: أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وقال الزهري: مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وذهب إلى رسم التسمية في أول كتب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين، قال أبو بكر الخطيب: هو الذي نختاره ونستحبه). اهـ

مسألة: النحت في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال القرطبي رحمه الله: (قال الماوردي ويقال لمن قال بسم الله: مبسمل، وهي لغة مولدة، وقد جاءت في الشعر.

قال عمر بن أبي ربيعة:

لقد بسملت ليلي غذاه لقيتها فيا حبذا ذلك الحبيب المبسمل

قلت: المشهور عن أهل اللغة بسمل، قال يعقوب بن السكيت والمطرز
والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل، إذا قال: بسم الله، يقال: قد
أكثرت من البسملة، أي من قول بسم الله، ومثله حوقل الرجل، إذا قال: لا
حول ولا قوة إلا بالله، وهلل، إذا قال: لا إله إلا الله، وسبحل، إذا قال: سبحان
الله، وحمدل، إذا قال: الحمد لله، وحيصل، إذا قال: حي على الصلاة، وجعفل
إذا قال: جعلت فداك، وطبقل، إذا قال: أطال الله بقاءك، ودمعز، إذا قال: أدام
الله عزك، وحيفل، إذا قال: حي على الفلاح، ولم يذكر المطرز: الحيصلة، إذا
قال: حي على الصلاة، وجعفل، إذا قال: جعلت فداك، وطبقل، إذا قال: أطال
الله بقاءك، ودمعز، إذا قال أدام الله عزك) اهـ.

بيان الاسم الأعظم

ورد في خصوص (اسم الله الأعظم) عدة أحاديث، أشهرها:

حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث: في (البقرة) و(آل عمران) و(طه)»، رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) وفي سنده غيلان بن أنس مجهول.

وحديث أنس رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ورجل يصلي ثم دعا: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»، رواه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨).

وحديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول: (اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب»، رواه الترمذي (٣٤٧٥)، وأبو داود (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣٨٥٧).

قال الحافظ ابن حجر: وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في

ذلك.

وحديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ وَاللَّهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، و فاتحة سورة آل عمران ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْإِنسَانِ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، رواه الترمذي (٣٤٧٨)، وأبو داود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥).

والحديث ضعيف، فيه عبيد الله بن أبي الزناد وشهر بن حوشب، وكلاهما ضعيف.

وقد اختلف أهل العلم في (اسم الله الأعظم).

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (١١ / ٢٢٤): (وقد أنكره قوم كأبي جعفر الطبري وأبي الحسن الأشعري وجماعة بعدهما كأبي حاتم بن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني فقالوا لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ونسب ذلك بعضهم لمالك لكرهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم وأن أسماء الله كلها عظيمة وعبارة أبي جعفر الطبري اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم والذي عندي أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه فكأنه يقول كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم كما تقدم وقال بن حبان الأعظمية

الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما أطلق ذلك في القرآن والمراد به مزيد ثواب القارئ وقيل المراد بالاسم الأعظم كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به مستغرقا بحيث لا يكون في فكره حالئذ غير الله تعالى فإن من تأتى له ذلك استجيب له ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق وعن الجنيد وعن غيرهما وقال آخرون استأثر الله تعالى بعلم الاسم الأعظم ولم يطلع عليه أحدا من خلقه وأثبته آخرون معينا واضطربوا في ذلك وجملة ما وقفت عليه من ذلك أربعة عشر قولاً:

الأول: الاسم الأعظم هو ما نقله الفخر الرازي عن بعض أهل الكشف، واحتج له بأن من أراد أن يعبر عن كلام معظم بحضرته لم يقل له أنت قلت كذا، وإنما يقول هو يقول؛ تأدبا معه.

الثاني: الله، لأنه اسم لم يطلق على غيره ولأنه الأصل في الأسماء الحسنى ومن ثم أضيفت إليه.

الثالث: الله الرحمن الرحيم، ولعل مستنده ما أخرجه بن ماجه عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ أن يعلمها الاسم الأعظم فلم يفعل فصلت ودعت: «اللهم إني أدعوك الله وأدعوك الرحمن وأدعوك الرحيم وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم»، الحديث، وفيه أنه قال لها إنه لفي الأسماء التي دعوت بها.

قلت وسنده ضعيف وفي الاستدلال به نظر لا يخفى^(١).

الرابع: الرحمن الرحيم الحي القيوم، لما أخرج الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وفتحة سورة آل عمران ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»، أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي، وحسنه الترمذي، وفي نسخة صحيحة وفيه نظر لأنه من رواية شهر بن حوشب.

الخامس: الحي القيوم، أخرج ابن ماجه من حديث أبي أمامة: «الاسم الأعظم في ثلاث سور، البقرة، وآل عمران، وطه»، قال القاسم-الراوي عن أبي أمامة-: التمسته منها فعرفت أنه: «الحي القيوم»، وقواه الفخر الرازي واحتج بأنهما يدلان من صفات العظمة بالربوبية مالا يدل على ذلك غيرهما كدلالتهما.

السادس: الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام الحي القيوم، ورد ذلك مجموعا في حديث أنس عند أحمد والحاكم وأصله عند أبي داود والنسائي وصححه بن حبان.

(١) في الزوائد في إسناده مقال، وعبد الله بن عكيم وثقه الخطيب وعده من الصحابة، ولا يصح له سماع، وأبو شيبة لم أر من جرحه ولا من وثقه وباقي رجال الإسناد ثقات. اهـ قلت: أبو شيبة كذبه أبو حاتم، وقال البخاري في حديثه عن ابن عكيم نظر.

السابع: بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام، أخرجه أبو يعلى من طريق السري بن يحيى عن رجل من طي وأثنى عليه قال: كنت أسأل الله أن يريني الاسم الأعظم فأريته مكتوبا في الكواكب في السماء.

الثامن: ذو الجلال والإكرام، أخرج للترمذي من حديث معاذ بن جبل قال: سمع النبي ﷺ رجلا يقول: «ياذا الجلال والإكرام، فقال قد استجيب لك، فسل»، واحتج له الفخر بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الإلهية لأن في الجلال إشارة إلى جميع السلوب، وفي الإكرام إشارة إلى جميع الإضافات.

التاسع: الله لا إله إلا هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث بريدة، وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.

العاشر: رب رب، أخرجه الحاكم من حديث أبي الدرداء وابن عباس بلفظ: «اسم الله الأكبر رب، رب»، وأخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة: «إذا قال العبد يا رب يا رب، قال الله تعالى: لبيك عبدي سل تعط»، رواه مرفوعا وموقوفا.

الحادي عشر: دعوة ذي النون، أخرج النسائي والحاكم عن فضالة بن عبيد رفعه: «دعوة ذي النون في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم قط إلا استجاب الله له».

الثاني عشر: نقل الفخر الرازي عن زين العابدين أنه سأل الله أن يعلمه الاسم الأعظم، فرأى في النوم «هو الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم».

الثالث عشر: هو مخفي في الأسماء الحسنى، ويؤيده حديث عائشة المتقدم لما دعت ببعض الأسماء وبالأسماء الحسنى، فقال لها صلى الله عليه وسلم: «إنه لفي الأسماء التي دعوت بها».

الرابع عشر: كلمة التوحيد، نقله عياض (هـ).

والصحيح مما تقدم أن اسم الله الأعظم هو «الله»، فعليه مدار جميع الأسماء الحسنى، وهي له نعوت وأوصاف، ولأنه الجامع لمعانيها جميعا.

قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الحمد هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، قال ابن القيم في "البدائع" (٢/٩٣): (وهذا أحسن تعريف لها)، وقد دل التعريف على أن الحمد يكون باللسان؛ لقوله الإخبار، ويكون بالقلب؛ لقوله مع حبه وإجلاله وتعظيمه، وأكثر العلماء يذهبون في تعريفها إلى أنها: الثناء على الله، وذهب بعضهم إلى أنها شكر الله ﷻ، وسيأتي الفرق بينهما إن شاء الله تعالى.

وقال رحمه الله في "بدائع التفسير" (١/١٢٢): (نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلا ووصفا واسما، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلا ووصفا واسما، فهو المحمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه منزه من العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه). اهـ.

كما أن قول: (سبحان الله) يتضمن تنزيه الله ﷻ عن جميع النقائص والعيوب، ويستلزم إثبات جميع المحامد.

ولعظم هذه الكلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ افتتح ﷻ بها خمس سور من القرآن: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

وكم يجمع الله ﷻ ورسوله ﷺ بينهما وبين التسبيح لما تقدم بيانه.

وقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عند مسلم (٢٢٣): «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السموات والأرض».

وقال النبي ﷺ: كما في حديث أبي سلام عن مولى رسول الله ﷺ، عند أحمد (٤٤٣/٣)، وهو في الصحيح المسند لشيخنا رحمته الله «بخ بخ! لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والداه».

ويسمع الله لحامده كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه عند مسلم (٤٠٤)، قال النبي ﷺ: «وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد يسمع الله لكم، فإن الله تبارك وتعالى قال على لسان نبيه: سمع الله لمن حمده».

وأخرج الإمام مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قراءة الفاتحة في الصلاة وفيه: «فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي».

وهي من أحب الكلام إلى الله، كما في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن ابتدأت»، أخرجه مسلم (٢١٣٧).

قال ابن القيم رحمته الله في الصواعق المرسله (٤/ ١٢٢٣): (فإنه سبحانه يحمد على أفعاله كما حمد نفسه عليها في كتابه وحمده عليها رسله وملائكته والمؤمنون من عباده فمن لا فعل له البتة كيف يحمد على ذلك فالأفعال هي المقتضية للحمد ولهذا نجد مقرونا بها كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] اهـ.

قال السمعاني رحمته الله في تفسير سورة الفاتحة (١/ ٣٦٤): (ثم اعلم أن حمد الله تعالى لنفسه حسن لا كحمد المخلوقين لأنفسهم؛ لأن حمد المخلوقين لا يخلو عن نقص؛ فلا يخلو مدحه نفسه عن كذب؛ فيقبح منه أن يمدح نفسه، وأما الله جل جلاله بريء عن النقص والعيب؛ فكان مدحه نفسه حسنا) اهـ.

الفرق بين الحمد والشكر

وقد ذهب ابن جرير رحمته الله إلى أن الحمد هو الشكر لله عجل، ورد هذا التعريف ابن كثير في تفسيره، فقال: (وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا) اهـ.

وهذا التعريف الذي ذهب إليه ابن كثير؛ رده ابن القيم رحمته الله كما في "البدائع" (٢/ ٩٥)، وبين أن الثناء هو الحمد إذا تكرر، فقال: (فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد فإن الثناء مأخوذ من الشني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض ومنه ثنيت الثوب ومنه التثنية في الاسم) اهـ.

واستدل على ذلك رحمته الله بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الإمام مسلم (٣٩٥): «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدني ما سألت، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي»؛ لأنه كرر الحمد.

واللام في الحمد للاستغراق، أي استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيما وتمجيذا، قاله القاسمي في تفسيره.

وقال القرطبي رحمته الله في التفسير (١/ ١٧٧): (الحمد في كلام العرب معناه: الشئ الكامل، والألف واللام للاستغراق الجنسي من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه، إذ له الأسماء الحسنی والصفات العلاء) اهـ.

قال ابن القيم رحمته الله في "طريق المهجرتين": (وكل ما شمله عجل ملكه وقدرته شمله حمده) اهـ.

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين الحمد والشكر من حيث أن الشكر أعم آلة؛ أي أنه يكون بالقلب خضوعا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافا، وبالجوارح طاعة وانقيادا، بينما الحمد يكون باللسان وبالقلب فقط.

والشكر يكون على الصفات المتعدية فقط، فتقول شكرته على إحسانه وفضله وعدله، ولا تقول شكرته على سمعه وبصره وجماله.

بينما الحمد يكون على الصفات المتعدية واللازمة، تقول حمدته على جماله وإحسانه، وحمدته على سمعه وبصره. اهـ، بتصرف من "المدارج" (٢/ ٢٤٦).

قال ابن كثير رحمته الله: (اختلفوا أيها أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عموما وخصوصا)، ثم ذكر بنحو ما تقدم من كلام ابن القيم.

وقد تكلم أهل العلم في هذه الفروق، وأجمعها ما قال ابن القيم في "البدائع": (فنقول الإخبار عن محاسن الغير له ثلاث اعتبارات اعتبار من حيث المخبر به واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر واعتبار من حيث حال المخبر فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم إلى الحمد والمجد فإن المخبر به إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها فإن كان الأول فهو المجد وإن كان الثاني فهو الحمد وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور على معنى الاتساع والكثرة فمنه قولهم أجد الدابة علفاً أي أوسعها علفاً ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس قال الشاعر:

أنت تكون ماجد نبيل إذا تهب شمال بليل

ومنه قولهم في شجر الغار واستمجد "المرخ" و"العفار"؛ أي كثرت النار فيهما، ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد فإن الثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض ومنه ثنيت الثوب ومنه الثنية في الاسم فالثنى مكرر لمحاسن من يثنى عليه مرة بعد مرة ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد فإن المخبر عن محاسن الغير إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا فإن اقترن به الحب فهو الحمد وإلا فهو المدح فحصل هذه الأقسام وميزها) اهـ.

وكان رسول الله يفتتح خطبه بالحمد لله **عَبَّادٌ** كما هو مشهور من خطبة الحاجة ففي حديث عبد الله بن مسعود **رضي الله عنه** عند أبي داود (٢١١٨) قال: «علمنا رسول الله **صلى الله عليه وسلم** خطبة الحاجة: إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب: ٧١]».

وفي حديث جابر **رضي الله عنه** عند مسلم برقم (٨٦٧) قال: كان رسول الله **صلى الله عليه وسلم** يخطب الناس ويحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: «من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وخير الحديث كتاب الله».

وفي رواية: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

وفي حديث ابن عباس عند مسلم (٨٦٨) أن ضمادا، قدم مكة وكان من أزد شنوءة، وكان يركي من هذه الرياح، فسمع سفهاء من أهل مكة، يقولون:

إن محمدا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال فلقيه، فقال: يا محمد إني أرقى من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد».

والكلام على الحمد ومواطنه يطول، فيا حبذا لو يفرد بمؤلف مستقل، فهذا اللفظ أحب الكلام إلى الله ﷻ.

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السموات والأرض»، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عند مسلم (٢٢٣).

وأحب الكلام إلى الله؛ سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)، ولما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «بخ بخ، لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده»، من حديث أبي سلمى رضي الله عنه عند أحمد (١٥٦٦٢)، في أحاديث كثيرة، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الذكر لا

إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عند الترمذي (٣٣٨٣).

والحمد جاء في مواطن:

منها بعد الصلاة إذ صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر بحمد الله تعالى من حديث كعب ابن عجرة في مسلم (٥٩٦): «معقبات لا يخيب قائلهن - أو فاعلهن - دبر كل صلاة مكتوبة، ثلاث وثلاثون تسيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة».

ومنها: عند النوم لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث علي رضي الله عنه عند البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧) واللفظ له، أن فاطمة رضي الله عنها اشتكت ما تلقى من الرحي في يدها، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم سبي، فانطلقت، فلم تجده ولقيت عائشة، فأخبرتها فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم، أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليها، ف جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «على مكانكما» ففعد بيننا حتى وجدت برد قدمه على صدري، ثم قال: «ألا أعلمكما خيرا مما سألتما، إذا أخذتما مضاجعكما، أن تكبرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبحاه ثلاثاً وثلاثين، وتحمداه ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم».

وفي مسند أحمد (٦٩١٠) من طريق شعبة عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خلصتان - أو خلتان - لا

يحافظ عليهما رجل مسلم إلا دخل الجنة، هما يسير، ومن يعمل بهما قليل، تسبح الله عشرا، وتحمد الله عشرا، وتكبر الله عشرا في دبر كل صلاة، فذلك مائة وخمسون باللسان، وألف وخمس مائة في الميزان، وتسبح ثلاثا وثلاثين، وتحمد ثلاثا وثلاثين، وتكبر أربعاً وثلاثين - عطاء لا يدري أيتهن أربع وثلاثون - إذا أخذ مضجعه، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم ألفين وخمس مائة سيئة؟»، قالوا: يا رسول الله، كيف هما يسير ومن يعمل بهما قليل؟ قال: «يأتي أحدكم الشيطان إذا فرغ من صلاته، فيذكره حاجة كذا وكذا، فيقوم ولا يقولها، فإذا اضطجع يأتيه الشيطان فينومه قبل أن يقولها»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدهن في يده.

ومنه الدعاء، لما صح أن أم سليم رضي الله عنها غدت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: علمني كلمات أقولهن في صلاتي، فقال صلى الله عليه وسلم: «كبري الله عشرا، وسبحي الله عشرا، واحمديه عشرا، ثم سلي ما شئت»، من حديث أنس رضي الله عنه عند الترمذي (٤٨١)، والنسائي (١٢٩٩).

وعند الصباح والمساء، قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ [الروم:

وبعد قراءة القرآن وحضور المجالس، قال الرسول ﷺ: «كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»، أبو داود (٤٨٥٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي (٣٤٣٣)، وجاء عن عائشة رضي الله عنها.

وهو من أحب الكلام إلى الله، كما تقدم قوله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وهي من غراس الجنة، كما قال إبراهيم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم: «أقرب أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند الترمذي (٣٤٦٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده، وغرست له نخلة في الجنة»، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عند الترمذي (٣٤٦٤)، وجاء من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن مما تذكرون من جلال الله التسبيح، والتهليل، والتحميد ينعظفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، تذكر بصاحبها، أما يجب أحدكم أن يكون له أو لا يزال له من يذكر به؟»، ابن ماجه (٣٨٠٩).

وعند ركوب الدابة، فقد صح عن النبي ﷺ قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل»، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في مسلم (١٣٤٢).

وعند الانتهاء من الطعام، قال الرسول ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند مسلم (٢٧٣٤).

وقد حمد الله نفسه في عدة مواطن من القرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، وحمد نفسه بعد الانتهاء من القضاء بين العباد حيث قال ﷺ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، أدخل أهل اللجنة الجنة بفضلهم وإدخال أهل النار النار بعدله، وفي

حديث عائشة رضي الله عنها عند ابن ماجه (٣٨٠٣)، وابن عمر رضي الله عنهما عند أبي داود (٥٠٥٨)، قال رضي الله عنهما: «الحمد لله على كل حال».

وأجمل حديث في الحمد وأتمّه؛ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي صلى الله عليه وسلم فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه - أو قال: يده - قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ولا مكافئ ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد لله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسا من العري، وهدى من الضلالة وبصر من العماية وفضل على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين»، أخرجه الحاكم في المستدرک (١ / ٧٣١).

إلى غير ذلك وإنما هذه إشارات إلى فضل هذه الكلمة، وهي متضمنة لإثبات كل كمال لله عز وجل ومستلزمة لنفي جميع النقائص عن الله عز وجل.

قال ابن القيم رحمته الله في "طريق المهجرتين" (١٣٠-١٣٣): (وقد نبه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره وعند الأمر والشرع وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرد به بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاته أحد من خلقه لحاجته إليه، وحمد نفسه على علوه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوى

والسفلى، ونبه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه، فتنوع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة وفرقها أخرى ليتعرف إلى عباده ويعرفهم كيف يحمدونه وكيف يشنون عليه، وليتحجب إليهم بذلك ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه،

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾

[الفاتحة: ٢- ٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ

الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ

لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١- ٢]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ: ١]، وقال

تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْقَالٍ وَثَلَاثَ

وَرُبْعٍ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١]، وقال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص:

٧٠]، وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥]، وقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ

﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧-

أخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانتة ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥].

وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده، فقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، و﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۗ وَأَخْرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠]، وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٧٤-٧٥]، وقال: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا مكذبين بآيات ربهم مشركين به جاحدين لإلهيته مفترين عليه، وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم وأخذه مبعوض حقه عليهم وأنه غير ظالم لهم وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده وإنما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما تقول الجبرية.

وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به ولا إلى التعبير عنه، ولكن بالجملة فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل وكل حمد ومدح وتسييح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يوصف به ويذكر به ويخبر عنه فهو محامد له وثناءً وتسييح وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يحصى أحد من خلقه ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه خلقه، فله الحمد أولاً وآخراً حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده.

فهذا تنبيه على أحد نوعي حمده، وهو حمد الصفات والأسماء، والنوع الثاني حمد النعم والآلاء، وهذا مشهود للخليقة برها وفاجرها مؤمنها وكافرها، من جزيل مواهبه وسعة عطاياه وكريم أياديه وجميل صنائعه وحسن معاملته لعباده وسعة رحمته لهم وبره ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين وإغاثة الملهوفين ورحمته للعالمين وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها وصرفها بعد وقوعها.

ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى من أراده بأحسن الألفاظ، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصته وعباده إلى سبل دار السلام، ومدافعتهم عنهم أحسن الدفاع وحمایتهم عن مراتع الآثام، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من

الراشدين وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه وسماهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكره وأعطاهم قبل أن يسألوه وتحبب إليهم بنعمة مع غناه عنهم وتبغضهم إليه بالمعاصي وفقرهم إليه، ومع هذا كله فاتخذ لهم دارا وأعد لهم فيها من كل ما تشتهي النفس وتلد الأعين، وملاها من جميع الخيرات وأودعها من النعيم والخبرة والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم أرسل إليهم الرسل يدعوهم إليها، ثم يسر لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضى منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جدا بالإضافة إلى بقاء دار النعيم، وضمن لهم إن أحسنوا أن يشيهم بالحسنة عشرة وإن أساءوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحوا ما جنوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات، وذكرهم بالآئه وتعرف إليهم بأسمائهم، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحساناً لا حاجة منه إليهم، ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لا بخلاً منه عليهم وخاطبهم باللفظ الخطاب وأحلاه ونصحهم بأحسن النصائح ووصاهم بأكمل الوصايا وأمرهم بأشرف الخصال ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال.

فحقيقة نفس الإنسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة، وصرف لهم الآيات وضرب لهم الأمثال ووسع لهم طرق العلم به ومعرفته وفتح لهم أبواب الهداية وعرفهم الأسباب التي تدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه، ويخاطبهم باللفظ الخطاب ويسميهم بأحسن أسمائهم). اهـ.

وهنا فائدة وهي أن الله ﷻ أمر بالحمد للذات العلية باسم ﴿اللَّهُ﴾ دون ما سواه ، وذلك لأن هذا الاسم متضمن لكل كمال ثابت للرب تعالى؛ سواء كان ذلك بدلالة المطابقة أو التضمن أو الالتزام.

قال شيخ الإسلام رحمته الله كما في المجموع (١٤/١٢-١٤): قال الله ﷻ في أول السورة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فبدأ بهذين الاسمين: الله والرب، و"الله" هو الإله المعبود فهذا الاسم أحق بالعبادة؛ ولهذا يقال: الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله، لا إله إلا الله، و"الرب" هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة، ولهذا يقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب، فالاسم الأول يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله وهو عبادة الله، والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتدأه، وهو أنه يربه ويتولاه مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية والربوبية تستلزم الألوهية أيضا.

والاسم "الرحمن" يتضمن كمال التعليق وبوصف الحالين فيه تتم سعادته في دنياه وأخراه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا

إِلَهَ إِلاَهُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾، فذكر هنا الأسماء الثلاثة: (الرحمن و
ربي والإله)، وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾﴾، كما ذكر الأسماء
الثلاثة في أم القرآن؛ لكن بدأ هناك باسم الله؛ ولهذا بدأ في السورة
بِ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فقدم الاسم وما يتعلق به من العبادة؛ لأن تلك السورة فاتحة
الكتاب وأم القرآن فقدم فيها المقصود الذي هو العلة الغائية فإنها علة فاعلية
للعلة الغائية، وقد بسطت هذا المعنى في مواضع؛ في أول "التفسير" وفي
"قاعدة المحبة والإرادة" وفي غير ذلك) اهـ.

قوله ﴿رَبِّ﴾

قال الراغب في "المفردات": (الرَّبُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حدّ التمام، يقال رَبَّه، وربَّاه وربَّبه، وقيل: (لأن يرَبِّي رجل من قريش أحبَّ إليّ من أن يرَبِّي رجل من هوازن)، فالرَّبُّ مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرَّبُّ مطلقا إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، نحو قوله: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠] أي: آلهة، وتزعمون أنهم الباري مسبب الأسباب، والمتولي لمصالح العباد، وبالإضافة يقال له ولغيره، نحو قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١]، ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصفات: ١٢٦]، ويقال: رَبُّ الدَّارِ، وَرَبُّ الفرس لصاحبهما، وعلى ذلك قول الله تعالى: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، وقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، قيل: عنى به الله تعالى، وقيل: عنى به الملك الذي ربَّاه، والأوّل أليق بقوله.

والرَّبَّانِيُّ قيل: منسوب إلى الرَّبَّانِ، ولفظ فعلان من: فعل بينى نحو: عطشان وسكران، وقلما بينى من فعل، وقد جاء نعسان.

وقيل: هو منسوب إلى الربّ الذي هو المصدر، وهو الذي يربّ العلم
 كالحكيم، وقيل: منسوب إليه، ومعناه، يربّ نفسه بالعلم، وكلاهما في التحقيق
 متلازمان، لأنّ من ربّ نفسه بالعلم فقد ربّ العلم، ومن ربّ العلم فقد ربّ
 نفسه به. وقيل: هو منسوب إلى الربّ أي: الله تعالى، فالربّانيّ كقولهم: إلهيّ،
 وزيادة النون فيه كزيادته في قولهم: لحيانيّ، وجسمانيّ.

قال عليّ رضي الله عنه: (أنا ربّانيّ هذه الأمة)، والجمع ربّانيّون.

قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ﴾ [المائدة: ٦٣] ، ﴿كُونُوا
 رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقيل: ربّانيّ لفظ في الأصل سريانيّ، وأخلق بذلك،
 فقلّمًا يوجد في كلامهم، وقوله تعالى: ﴿رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ، فالربّيّ
 كالربّانيّ.

والرّبوبيّة مصدر، يقال في الله **عَلَى**، والرّبابة تقال في غيره، وجمع الربّ
 أربابٌ، قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾
 [يوسف: ٣٩]، ولم يكن من حقّ الربّ أن يجمع إذ كان إطلاقه لا يتناول إلاّ الله
 تعالى، لكن أتى بلفظ الجمع فيه على حسب اعتقاداتهم، لا على ما عليه ذات
 الشيء في نفسه، والربّ لا يقال في التعارف إلاّ في الله، وجمعه أربّة، وربوب(اهد

قال الشوكاني **رحمته الله** في تفسيره: (قال في الصحاح: الرب اسم من أسماء الله
 تعالى، ولا يقال في غيره إلاّ بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك، وقال في

الكشاف: الرب المالك، ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يريني رجل من قريش أحب إلي من أن يريني رجل من هوازن، ثم ذكر نحو كلام الصحاح).

قال القرطبي في تفسيره: والرب السيد، ومنه قوله تعالى: ﴿أذْكَرُنِي﴾

عِنْدَ رَبِّكَ ﴿﴾، وفي الحديث «أن تلد الأمة ربتها»، والرب: المصلح والجابر والقائم قال: والرب: المعبود، ومنه قول الشاعر:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب) اهـ.

والرب من الأسماء الحسنی المختصة بالله تعالى، وإذا أطلق على غيره فمع الإضافة والتقييد فتقول: رب الدار، ورب المنزل، وهكذا.

وهو من الأسماء الجامعة التي عليها مدار الأسماء الحسنی.

قال ابن القيم رحمته الله في البدائع: (الرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له) اهـ.

ويتنظم في معنى هذا الاسم سائر الأسماء.

قال ابن القيم رحمته الله في "البدائع" أيضا: (فإن الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسعد من

يشاء ويشقي ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي لها منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى وأما الملك فهو الأمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى) اهـ.

وهذا الاسم دال على أفراد الرب تعالى بأفعاله تضمننا، ودال على أفراد الله ﷻ بأفعال المكلفين التزاما.

قال ابن القيم: (فإن ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فعلا مدبرا متصرفا في خلقه، يعلم ويقدر ويريد ويسمع ويبصر، فإذا انتفت أفعاله وصفاته انتفت ربوبيته، إذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهي ولوازمها وذلك ينفي حقيقة الإلهية). اهـ، كما في مختصر الصواعق.

وقال في "الصواعق المرسله" (٤/١٢٢٣): ﴿قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وربوبيته للعالم تتضمن تصرفه فيه وتدبيره له ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويخفض ويرفع ويعطي ويمنع ويعز ويذل ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه) اهـ.

وقد اختلف العلماء في تفضيل قول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ على ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، والعكس ولكن الظاهر أن قول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أفضل، لدلالة الدليل على ذلك.

قال القرطبي رحمته الله (١/١٧٧): (اختلف العلماء أيما أفضل، قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أو قول لا إله إلا الله؟ فقالت طائفة: قوله الحمد لله رب العالمين أفضل، لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله، ففي قوله توحيد وحمد، وفي قوله لا إله إلا الله توحيد فقط. وقالت طائفة: لا إله إلا الله أفضل، لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، واختار هذا القول ابن عطية قال: والحاكم بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له» اهـ.

قلت وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»، أخرجه الترمذي عن جابر رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، ونزيد على ذلك أن كلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لو قالها كافر لم يدخل بها في الإسلام، ولم يحقن دمه وماله.

ثم إن كلمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ دلالتها على التوحيد ظاهرة ومتضمنة للنفي والإثبات إلى غير ذلك من الأوجه.

وقد اختلف أهل العلم في أيها أفضل النعمة في ذاتها أو الحمد عليها.

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٨٢-٨٣): (وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: إني بأرض قد كثرت فيها النعم، حتى لقد أشفقت على أهلها من ضعف الشكر، فكتب إليه عمر: إني قد كنت أراك أعلم بالله مما أنت، إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها، إلا كان حمده أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وقال الله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [٧٣] وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، وأي نعمة أفضل من دخول الجنة؟، وقد ذكر ابن أبي الدنيا في "كتاب الشكر" عن بعض العلماء أنه صوب هذا القول، أعني قول من قال: إن الحمد أفضل من النعم، وعن ابن عيينة أنه خطأ قائله، وقال: لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الرب ﷻ، ولكن الصواب قول من صوبه، فإن المراد بالنعم: النعم الدنيوية، كالعافية والرزق والصحة، ودفع المكروه، ونحو ذلك، والحمد لله هو من النعم الدنيوية، وكلاهما نعمة من الله، لكن نعمة الله على عبده بهدايته لشكر نعمه بالحمد عليها أفضل من نعمه الدنيوية على عبده، فإن النعم الدنيوية إن لم يقترن بها الشكر، كانت بلية كما قال أبو حازم: كل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، فإذا وفق الله

عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر، كانت هذه النعمة خيرا من تلك النعم وأحب إلى الله ﷻ منها، فإن الله يحب المحامد، ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها، والثناء بالنعم والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحب إليهم من أموالهم، فهم يبذلونها طلبا للثناء، والله ﷻ أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلب منهم الثناء بها وذكرها، والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكرا عليها، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، لكنه يحب ذلك من عباده، حيث كان صلاح العبد وفلاحه وكمال فيه، ومن فضله سبحانه أنه نسب الحمد والشكر إليهم، وإن كان من أعظم نعمه عليهم، وهذا كما أنه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال، ثم استقرض منهم بعضه، ومدحهم بإعطائه، والكل ملكه ومن فضله، ولكن كرمه اقتضى ذلك) اهـ.

وقد جاء عند ابن ماجه (٣٨٠٥) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ»، في سنده شيبب بن بشر، ضعفه أبو حاتم بقوله ليين، ووثقه ابن معين، وقال ابن حبان يخطئ كثيرا، وقال الحافظ في التقریب صدوق، وجاء عند ابن ماجه من حديث عائشة رضي الله عنها برقم (٣٨٠٣)، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى ما

يجب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» ، وإذا رأى ما يكره قال:
«الحمد لله على كل حال»، قال البوصيري إسناده صحيح.

وعند ابن ماجه (٣٨٠٠) عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«أفضل الذكر لا إله الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»، إسناده حسن.

قوله: ﴿الْعَالَمِينَ﴾

قال الشوكاني رحمته الله في فتح القدير: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى قاله قتادة، وقيل أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، وقال ابن عباس: العالمون الجن والإنس، وقال الفراء وأبو عبيد: العالم عبارة عن من يعقل وهم أربعة أمم: الإنس، والجن، والملائكة، والشياطين، ولا يقال للبهائم عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل، حكى هذه الأقوال القرطبي في تفسيره وذكر أدلتها وقال: إن القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود، دليله قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٤]، وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجدته، كذا قال الزجاج، وقال: العالم: كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة، انتهى.

وعلى هذا يكون جمعه على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء تغليبا للعقلاء على غيرهم، وقال في الكشاف: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم، وقد أخرج ما تقدم من قول ابن عباس عنه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد، وأخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير، وأخرج ابن جبير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال:

[المرسلات: ١ - ٥]، ومنهم: ﴿وَالنَّزْعَتِ غَرَقًا﴾ ١ ﴿وَالنَّشِيطِ نَشْطًا﴾ ٢ ﴿وَالسَّيْحَتِ سَبْحًا﴾ ٣ ﴿فَالسَّيْقَتِ سَبْقًا﴾ ٤ ﴿[النازعات: ١ - ٤]، ومنهم: ﴿وَالصَّفَّتِ صَفًّا﴾ ١ ﴿فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا﴾ ٢ ﴿فَالنَّالِيَتِ ذِكْرًا﴾ ٣ ﴿[الصفات: ١ - ٣].

ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها: "فرقة"، و"طائفة"، و"جماعة"، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله، ولفظ "الملك" يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ٢٧ ﴿[الأنبياء: ٢٧]، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشِيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ٢٨ ﴿[الأنبياء: ٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا

﴿ ١٩ ﴾ [الأنبياء: ١٩]، ﴿ ٢٠ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿ ٢١ ﴾ [الأنبياء: ٢١]، ومنهم الأملاك الثلاثة:

جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عبادته، ينزلون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أظت السماوات بهم، وحق لها أن تتط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راعع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشرية، وتارة يذكر حفيهم بالعرش وحملهم له، وبراءتهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص، قال تعالى: ﴿كُلُّ ءَامَنَ

بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

وَأَلْمَلَأَ كُلُّهُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ

لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿غافر: ٧﴾، ﴿وترى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴿الزمر: ٧٥﴾، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ﴿الأنبياء: ٢٦﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿الأعراف: ٢٠٦﴾، ﴿فَإِنْ أَسْكَبُوا فَإِلَازِمًا عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ، بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ﴿فصلت: ٣٨﴾، ﴿كِنِينٍ ﴿١١﴾﴾ ﴿الانفطار: ١١﴾، ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ ﴿عبس: ١٦﴾، ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿المطففين: ٢١﴾﴾، ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْأَعْلَى﴾ ﴿الصفات: ٨﴾، وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم) اهـ.

ومن ﴿الْعَلَمِينَ﴾؛ الجن، وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجن من نار، وخلق الإنسان مما ذكر لكم».

قال الراغب في مفردات القرآن: (أن الروحانيين ثلاثة:

- أختيار: وهم الملائكة.

- وأشرار: وهم الشياطين.

- وأوساط فيهم أختيار وأشرار: وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴿١٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ ﴿الجن: ١٤﴾.

والْحِجَّةُ: جماعة الجن، قال تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]،
وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصفات: ١٥٨] اهـ.

فالله رب العالمين المتصرف فيه (فهو الذي يرب عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله ويهديه إلى اجتناب المفسد التي بها فساده وهلاكه). اهـ من طريق المهجرتين.

وقد جعل رسول الله ﷺ من الإيمان الرضى بالله رباً، أخرجه مسلم عن العباس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً»، أخرجه مسلم.

قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: (إن الرضا به ربا يتضمن الرضا عنه، ويستلزمه، فإن الرضا بربوبيته: هو رضا العبد بما يأمره به، وينهاه عنه، ويقسمه له ويقدره عليه، ويعطيه إياه، ويمنعه منه، فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضى به ربا من جميع الوجوه، وإن كان راضياً به ربا من بعضها، فالرضا به ربا من كل وجه: يستلزم الرضا عنه، ويتضمنه بلا ريب.

وأيضاً: فالرضا به ربا متعلق بذاته، وصفاته وأسمائه، وربوبيته العامة والخاصة، فهو الرضا به خالقا ومدبرا، وأمرا وناهيا، وملكا، ومعطيا ومانعا، وحكما، ووكيلا ووليا، وناصرا ومعينا، وكافيا وحسيبا ورقيبا، ومبتليا ومعافيا، وقابضا وباسطا، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه، ولهذا لم يجيء إلا في الثواب والجزاء، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۗ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ۗ ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧]، فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته، كقوله تعالى: ﴿خَلْدَيْنَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۗ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۗ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

والرضا به: أصل الرضا عنه، والرضا عنه: ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته، والرضا عنه: متعلق بثوابه وجزائه، وأيضا: فإن النبي ﷺ علق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربا، ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولا»، فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيه، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها) اهـ.

تنبيه: اسم الرب تعالى من الأسماء المفردة، ويكون من الأسماء المركبة كما في هذه الآية ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والأسماء المركبة من أسمائه الحسنی بالإجماع كما نقلته في "القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن"، والحمد لله.

قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

تقدم الكلام عليها وعلى معانيها في البسملة ونضيف هنا مناسبة المجيء بها في هذا الموطن.

قال الشوكاني رحمته الله: (قال القرطبي: وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْعَفْوَ رُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد» اهـ.

هذا من حيث المناسبة، وأما من حيث الحمد فإن هذا تثنية وتكرار له فقد تضمنت الآية الأولى حمد الله تعالى على ألوهيته للعالم، وربوبيته له ثم ثنى الحمد ببيان رحمة الله تعالى، وقد تقدم في الحديث: «إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال الله أثنى عليّ عبدي».

فالثناء هو الحمد إذا تكرر، وفيها بيانٌ عظيمٌ لفضل ذكر الله ﷻ ومحبة الله تعالى، لذلك فيتعين على العبد أن يلازم ذكر الله في السر والعلن سواء كان في ذلك الذكر الواجب الذي شرعه الله في العبادات، أو الذكر المستحب وهو الإتيان بالأدعية والأذكار في أوقات مخصوصة أو مطلقة، ومن وصايا رسول الله ﷺ لعبد الله بن بسر رضي الله عنه قوله: «لا يزال لسانك رطبا بذكر الله».

والله تعالى يجب أن يمدح ويذكر ويثنى عليه ويمجد، فانظر كيف يباهي الملائكة تعالى ويخبرهم بحمد عبده له وثناؤه عليه وتمجيده له، وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه»، أخرجه البخاري ومسلم، ومدح الله ﷻ يكون بأسمائه وصفاته إذ أنها دالة على المدح الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ومتضمنة لصفات مدح لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

ولهذا قال معاذ بن جبل رضي الله عنه ليس شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله.

ونذكر هنا لفظة لطيفة عن أسباب رحمة الله تعالى لعباده، فمن أعظم تلك الأسباب بل أعظمها على الإطلاق هو توحيد الله ﷻ وإفراده بما يجب له، قال الله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:

[١٥٥]، وقال تعالى: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومن ذلك اتباع طريقة رسول الله ﷺ جملة وتفصيلا، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ومنها رحمة الغير، قال النبي ﷺ لأبي رمثة رضي الله عنه: «والشاة إن رحمتها رحمتها رحمتك الله»، وقال رسول الله ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، إلى غير ذلك من أدلة الباب، وليس هذا موطن بسط ولكن إشارة إلى التعبد لله بما يكون سببا لرحمته للعبد.

قوله: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾

قال الشوكاني رحمته الله: (قُرئَ مَلِكٍ وَمَالِكٍ وَمَلِكٍ بسكون اللام، ومَلَكٍ بصيغة الفعل).

وقد اختلف العلماء أيها أبلغ مَلِكٍ أو مَالِكٍ؟ فقيل إن مَلِكٍ أعم وأبلغ من مَالِكٍ، إذ كل مَلِكٍ مَالِكٍ، وليس كل مَالِكٍ مَلِكًا، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا بتدبير الملك، قاله أبو عبيد والمبرد ورجحه الزمخشري، وقيل مَالِكٍ أبلغ لأنه يكون مَالِكًا للناس وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم.

وقال أبو حاتم: إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك، لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا، واختار هذا القاضي أبو بكر بن العربي.

والحق أن لكل واحد من الوصفين نوعٌ أخصية لا يوجد في الآخر، فالمالك يقدر على ما يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور، والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله) اهـ.

وقال ابن كثير رحمته الله: (قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقرأ

آخرون: ﴿مَلِكٍ﴾ وكلاهما صحيح متواتر في السبع.

ويقال: ملك أيضا، وأشبع نافع كسرة الكاف فقراً: "ملكي يوم الدين"

وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة

حسنة، ورجح الزمخشري "ملك"؛ لأنها قراءة أهل الحرمين ولقوله: ﴿لَمَنِ

الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾، وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾، وحكي عن أبي حنيفة أنه

قرأ "مَلَكَ يَوْمَ الدين" على أنه فعل وفاعل ومفعول، وهذا شاذ غريب جدا.

وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال: حدثنا أبو

عبد الرحمن الأذرمي، حدثنا عبد الوهاب عن عدي بن الفضل، عن أبي

المطرف، عن ابن شهاب: أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان

ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرءون: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وأول من

أحدث ﴿مَلِكٍ﴾ مروان، قلت: مروان عنده علم بصحة ما قرأه، لم يطلع عليه

ابن شهاب، والله أعلم.

وقد روي من طرق متعددة أوردها ابن مردويه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

يقرؤها: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾، ومالك مأخوذ من الملك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ

نَرْتُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مریم: ٤٠]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ [الناس: ١ - ٢]، وملك: مأخوذ من الملك كما قال تعالى: ﴿لَمِنَ الْمُلْكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦]، وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُعِيُّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا، قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى تفسير ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه.

والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿أَلْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، والله أعلم. اهـ.

ولما كان يوم الدين يوم الجزاء بالعقاب أو الثواب، وكان الملك هو الذي يأمر وينهى ويطاق، ومن شأنه أن يعز من أطاعه ويذل من عصاه؛ ناسب أن يأتي به مقيدا بهذا اليوم، مع أنه ملك يوم الدين وغير يوم الدين، وهذا الاسم من الأسماء الدالة على جميع صفات الكمال باللزوم.

قال ابن القيم رحمته الله في "شفاء العليل": (أن من أسمائه الملك ومعنى الملك الحقيقي ثابت له سبحانه بكل وجه وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال إذ من المحال ثبوت الملك الحقيقي التام لمن ليس له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا فعل اختياري يقوم به) اهـ.

وقال في "طريق المهجرتين": (إن حقيقة الملك إنما تتم بالعتاء والمنع والإكرام والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والتولية والعزل وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ أَلْمَلِكِ تُؤْتِي أَلْمَلِكُ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ أَلْمَلِكُ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ أَلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦٦) تُولِجُ أَلْيَلَّ فِي أَلنَّهَارِ وَتُولِجُ أَلنَّهَارَ فِي أَلْيَلِّ وَتُخْرِجُ أَلْحَيَّ مِّنْ

أَلَمَّيَّتْ وَتُخْرِجُ أَلَمَّيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مِنْ تَشَاءٍ بغيرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ [آل عمران: ٢٦ - ٢٧] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩]، يغفر ذنبا ويفرج كربا ويكشف غما وينصر مظلوما ويأخذ ظلما ويفك عانيا ويغنى فقيرا ويجبر كسيرا ويشفى مريضا ويقبل عشرة ويستتر عورة ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويعطى سائلا ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواما ويضع آخرين يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك) اهـ.

وهو سبحانه الملك الحق، قال تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وله الملك المطلق، قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٢٠﴾ [المائدة: ١٢٠]، والآيات الدالات على عموم ملكه كثيرة، وفي الحديث ما يوافق ما تضمنته هذه الآية، ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يطوي السموات يوم القيامة بيمينه،

ويأخذ الأرض بيده الأخرى، ثم يهزهن ويقول أنا الملك أنا الملك»، وما جاء في بعض روايات مسلم أنه يأخذ الأرض بشماله لا يثبت ؛ بل هي زيادة منكرة زادها عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر العمري؛ وهو ضعيف، والثابت كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عند مسلم: «وكلتا يديه يمين»، والله أعلم، وصفة اليدين من الصفات الذاتية الخبرية، قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص: ٧٥]، وكان من حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده».

قوله: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾

المراد به يوم القيامة، فهو يوم الجزاء و الموافاة على الأعمال، وقد فسرت هذا اليوم آيات سورة الانفطار.

قال الشوكاني: (و﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده كما قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩]. اهـ.

قال ابن كثير **رحمته**: (وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١٠٨) [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا، قال: ويوم الدين يوم الحساب

للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، إلا من عفا عنه، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى تفسير ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه.

والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣] اهـ.

قال القرطبي رحمته الله: (اليوم: عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما. وقد يطلق اليوم على الساعة منه، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وجمع يوم أيام، وأصله أيام فأدغم، وربما عبروا عن الشدة باليوم، يقال: يوم أيوم، كما يقال: ليلة ليلاء، قال الراجز:

نعم أخو الهيجاء في اليوم اليمي

وهو مقلوب منه، آخر الواو وقدم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طرفا، كما قالوا: أدل في جمع دلو.

والدين: الجزاء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتادة وغيرهم، وروي عن النبي ﷺ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]؛ أي حسابهم.

وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]، و﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجنات: ٢٨]، وقال: ﴿أَيُّهَا الْمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]؛ أي مجزيون محاسبون، وقال لبيد:

حصادك يوما ما زرعت وإنما يدان الفتى يوما كما هو دائن

وقال آخر:

إذا ما رمونا رميناهم ودناهم مثل ما يقرضونا

وقال آخر:

واعلم يقينا أن ملكك زائل واعلم بأن كما تدين تدان

وحكى أهل اللغة: دنته بفعله دينا (بفتح الدال)، ودينا (بكسرها) جزيته، ومنه الديان في صفة الرب تعالى أي المجازي، وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه»؛ أي حاسب.

وقيل: القضاء، روي عن ابن عباس أيضا، ومنه قول طرفة:

لعمرك ما كانت حمولة معبد على جدها حربا لدينك من مضر

ومعاني هذه الثلاثة متقاربة، والدين أيضا: الطاعة، ومنه قول عمرو بن

كلثوم:

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهي: الثانية والعشرون قال ثعلب: دان الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عز، ودان إذا ذل، ودان إذا قهر، فهو من الأضداد، ويطلق الدين على العادة والشأن، كما قال:

كدينك من أم الحويرث قبلها

وقال المثقب يذكر ناقته :

تقول إذا درأت لها وضيبي أهذا دينه أبدا وديني

والدين: سيرة الملك، قال زهير:

لئن حللت بجو في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فذك

أراد في موضع طاعة عمرو، والدين: الداء، عن اللحياني، وأنشد:

يا دين قلبك من سلمى وقد دينا) اهـ.

ويوم الدين هو اليوم الآخر الذي ذكره الله في كتابه مجليا له حتى كأنه

رأى العين، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ

فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَآ

غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
 كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾
 إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِعَائِينَ ﴿١٦﴾
 وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا
 وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴿[الانفطار]، وقال الله ﷻ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا
 النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ
 حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلتْ ﴿٨﴾
 بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾
 وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١ - ١٤]، وقال تعالى:
 ﴿الْفَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْفَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
 كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا
 مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾
 فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾﴾ [الفارعة]،
 وقال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقة: ١ - ٣]، وقال
 تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورًا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوًا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ
 عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورًا رَبِّكُمْ إِنَّ
 زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ [الحج: ١ - ٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفَخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ نُّعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٨]، إلى غير ذلك من أدلة الكتاب والسنة الصحيحة.

والإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة الذي تضمنه حديث عمر رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فسأله عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، أخرجه مسلم، وفي حديث أبي هريرة: «وتؤمن بالبعث بعد الموت»، ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما في القبر من حياة البرزخية وما يليها من أهوال يوم القيامة وكل ذلك داخل في الإيمان بالغيب الذي امتدح الله تعالى أهله، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُمِئُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْتُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ [البقرة: ٣ - ٥]، ويتعين على المسلم أن يعرف ما يتعلق بذلك اليوم حيث وأن المبتدعة من المعتزلة وغيرهم ممن سار على علم الكلام الباطل ينكرون أكثر المعتقدات المتعلقة بالحياة الآخروية، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، فينكرون عذاب القبر مع تواتر الأدلة بثبوتها، ولو لم يكن إلا ما يقوله المسلمون في دبر التشهد «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال»، وقبل ذلك قول الله ﷻ في شأن قوم فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فأخبر الله ﷻ عن عذاب يمر به آل فرعون قبل قيام الساعة، والأدلة على ذلك يطول ذكرها، ولي بحمد الله مؤلف مستقل في نعيم القبر وعذابه، ومما ينكره هؤلاء المتهوكه الحيارى ما يتعلق بإثبات رؤية الله ﷻ في ذلك اليوم، مع ما دل عليه قول الله ﷻ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقول الله ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد فسر رسول الله ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجهه الله تعالى، كما في صحيح مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه، وقال الله ﷻ: ﴿عَلَىٰ الْأَرْبَابِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾

[الأحزاب: ٤٤]، وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهرية ليس دونها سحاب»، قالوا: لا يا رسول الله، قال «وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر»: قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك، وذكر الحديث، والحديث مخرج بطوله في الصحيحين، وقد تكلمت بحمد الله عن هذه المسألة عن هذه وعقيدة المسلمين فيها بما يكفي ويشفي إن شاء الله في كتاب رؤية المؤمنين للجبار في المحشر ودار القرار.

وينكرون الحوض والميزان والصراط وكل ذلك عليه أدلته المتواترة من الكتاب والسنة، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر]، وفسره ورسوله صلى الله عليه وسلم كما في حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم «أتدرون ما الكوثر؟»، قال: فقلنا الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أممي يوم القيامة آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أممي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك»، والأحاديث في شأنه متواترة رواها أكثر من ثمانين صحابيا، كما ذكر الحافظ ذلك في الفتح، ولبقي بن مخلد جزء في أحاديث الحوض، وقيل شعرا في ذلك:

مما تواتر حديث من كذب ومن بنى لله بيتا واحتسب

ورؤية شفاعاة والحوض ومسح خفين وهذي بعض

والميزان قال الله في شأنه ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [١٠٢] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [١٠٣] [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣]، وهو ميزان واحد له كفتان، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عند الترمذي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتتكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتني الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء» الحديث، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ومن عجيب فتنة المبتدعة أنهم ينكرون شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، مع تواتر الأدلة في ثبوتها، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق كثيرة قوله: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، أخرجه

الترمذي وغيره عن أنس رضي الله عنه ، وعند أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين؟ لا؛ ولكنها للمذنبين الخاطئين المتلوثين»، ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك - وقال ابن عبيد: فيلهمون لذلك - فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، قال: فيأتون آدم صلى الله عليه وسلم ، فيقولون: أنت آدم، أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناك، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن اتوا نوحا أول رسول بعثه الله، قال: فيأتون نوحا صلى الله عليه وسلم ، فيقول: لست هناك، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن اتوا إبراهيم صلى الله عليه وسلم الذي اتخذته الله خليلا، فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن اتوا موسى صلى الله عليه وسلم ، الذي كلمه الله وأعطاه التوراة، قال: فيأتون موسى صلى الله عليه وسلم ، فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن اتوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناك، ولكن اتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فيأتوني فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد،

ارفع رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي، ثم أشفع فيحدي لي حدا، فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع يا محمد، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحدي لي حدا، فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة - قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة - قال فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود»، ولشيخنا مقبل رحمته الله كتابا ماتعا في الشفاعة.

ومن عظيم بلائهم زعم الجهمية فناء الجنة والنار قاتلهم الله، مع ما تواتر به المنقول من القرآن والسنة من أن الجنة والنار لا تفنيان أبدا، ولا تبيدان، وقبل ذلك ما يعتقد المسلمون من أنها موجودتان الآن، الجنة في السماء السابعة وسقفها عرش الرحمن، والنار في الأرض السفلى، قال تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المطففين: ١٨ - ٢٠]، وفي حديث البراء رضي الله عنه الطويل وغيره «وعليون في السماء السابعة»، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: ٧]، وفي حديث البراء رضي الله عنه أن «سجين في الأرض السفلى»، وقال تعالى في شأن الجنة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال في شأن النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد وغيره: «لما خلق الله

الجنة والنار، أرسل جبريل، قال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع إليه، فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحجبت بالمكارة، قال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي قد حجبت بالمكارة، فرجع إليه، فقال: وعزتك، قد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعد لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضا، فرجع، فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فرجع إليه، قال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها».

وفي حديث الكسوف يقول رسول الله ﷺ: «رأيت الجنة والنار»، وأما أدلة الخلود فكم في القرآن من قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، وقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾، وفي السنة حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت يوم القيامة، كأنه كبش أملح، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشربون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال فيشربون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، قال: ثم قرأ رسول

الله ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]،
أخرجه مسلم، إلى غير ذلك، وإنما ذكرت هذا تصحيحاً لعقائد المسلمين.

وفي هذه السورة بيان التوسل المشروع، وهو التوسل إلى الله ﷻ بأسمائه وصفاته وما في ذلك من المعاني البليغة، وكيف كانت المناسبة، إذا توسل إلى الله ﷻ بحمده على ألوهيته وربوبيته، وعلى جميع صفات كماله ونعوت جلاله، وكان ذلك بالتوسل بالاسم الأعظم المتضمن لجميع صفات الكمال، ثم باسم الرب الدال على الاطلاع والإحاطة وغير ذلك، ثم ثلث بالتوسل باسم الله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، الدال على صفة الرحمة الواسعة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وسواء كان ذلك بالتوسل بالرحمة العامة أو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، ثم كان التوسل بعد ذلك باسمه الملك الدال على الموافاة والمجازاة والرفع والحفظ والإعزاز والإذلال، فكان في هذه الآيات أعظم التناسق والتناسب، ولهذا إذا رجعت إلى الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه فيما يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه ﷻ قال: « فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فكل هذه الأسماء والصفات دالة على حمد الله ﷻ إلا أن الفرق بين الحمد والثناء

والمجد، مع أنها كلها حمد، وأن الثناء تكرر الحمد كما تقدم، والتمجيد هو الحمد لكن يكون بوصف الله **عَلَيْكَ** بأسماء العظمة، والحمد لله.

قال ابن جرير **رحمته**: (فتأويل قراءة من قرأ ذلك: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، أن الله المَلِكُ يوم الدين خالصاً دون جميع خلقه، الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكاً جبابرة ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفراداً بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصَّغَرَةُ الأذِلَّةُ، وأنَّ له - من دُونهم، ودون غيرهم - المَلِكُ والكبرياء، والعزة والبهاء، كما قال جَلَّ ذكره وتقدست أسماؤه في تنزيله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]، فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالملك دون ملوك الدنيا، الذين صاروا يوم الدين من مُلكهم إلى ذِلَّةٍ وصغار، ومن دُنْيَاهم في المعاد إلى خسار) اهـ.

تتمة: جاء في الصحيحين عن أبي هريرة **رضي الله عنه** عن النبي **صلى الله عليه وسلم** قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله».

قال ابن القيم **رحمته** في "زاد المعاد" (٢/ ٣٤٠-٣٤١): (ولما كان الملك الحق لله وحده، ولا ملك على الحقيقة سواه كان أخنع اسم، وأوضعه عند الله، وأغضبه له اسم «شاهان شاه» أي: ملك الملوك وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لا يجب الباطل).

وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا «قاضي القضاة»، وقال: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق، وهو خير الفاصلين الذي إذا قضى أمراً فإنها يقول له: كن فيكون، ويلى هذا الاسم في الكراهة والقبح والكذب سيد الناس، وسيد الكل، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة كما قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: إنه سيد الناس، وسيد الكل، كما لا يجوز أن يقول: إنه سيد ولد آدم) اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر في "الفتح" (١٠ / ٧٢١): (وقيل يلتحق به أيضاً من تسمى بشيء من أسماء الله الخاصة به كالرحمن والقدوس والجبار وهل يلتحق به من تسمى قاضي القضاة أو حاكم الحكام اختلف العلماء في ذلك فقال الزمخشري في قوله تعالى أحكم الحاكمين أي أعدل الحكام وأعلمهم إذ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل قال ورب غريق في الجهل والجور من مقلدي زماننا قد لقب أفضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر وتعقبه بن المنير بحديث أفضاكم علي قال فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاض يكون أعدل القضاة أو أعلمهم في زمانه أفضى القضاة أو يريد إقليمه أو بلده ثم تكلم في الفرق بين قاضي القضاة وأفضى القضاة وفي اصطلاحهم على أن الأول فوق الثاني وليس من غرضنا هنا وقد تعقب كلام بن المنير علم الدين العراقي فصوب ما ذكره الزمخشري من المنع ورد ما احتج به من قضية علي بأن التفضيل في ذلك وقع في حق من خوطب به ومن يلتحق

بهم فليس مساويا لإطلاق التفضيل بالألف واللام قال ولا يخفى ما في إطلاق ذلك من الجراءة وسوء الأدب ولا عبرة بقول من ولي القضاء فنعت بذلك فلذ في سمعه فاحتال في الجواز فإن الحق أحق أن يتبع) اهـ.

وتضمنت هذه الآيات بيان أنواع التوحيد الثلاثة

الأول: توحيد الربوبية وهو إفراد الله ﷻ بأفعاله؛ ويسمى بالتوحيد العلمي، وهذا التوحيد فطري، قال تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال ابن كثير **رحمته الله:** (فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقرهم من الله زلفى) اهـ.

ولم ينكر الربوبية إلا شواذ من البشرية، ومع ذلك بينه الله ﷻ في القرآن بيانا شافيا كافيا مزيلا لكل لبس وشك، وألزم من اعتقده وآمن به أن يقر بالألوهية؛ لأن الخالق الرازق المالك المدبر هو المستحق للعبادة على ما يأتي، ولا يجوز أن تصرف إلى غيره بحال.

قال تعالى مقررا هذا الباب بدلالة الخلق والإيجاد ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُوتِيكَ هُمُ
 الْخَسِرُونَ ﴿٦٣﴾ [الزمر: ٦٢ - ٦٣]، وقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا
 وَاللَّيْلَ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا
 فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ
 الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ [لقمان: ١٠ - ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
 إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ [يونس: ٣]، وقال
 تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَتَنَّى وَتَلَّثَ
 وَرَبِعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ [فاطر: ١]، والأدلة في القرآن
 على أنه خالق العالم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

وقال تعالى مبينا ربوبيته بدلالة الملك ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مَنْ
 تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
 [الملك: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
 الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ [سبأ: ١]، وقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
 وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ [الحديد: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ
 فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ

السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾
 قُلْ مَنْ مَنِّيهِ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٨﴾
 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴿المؤمنون: ٨٤ - ٨٩﴾، وقال تعالى: ﴿مَلِكِ
 يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾
 [غافر: ١٦]، فهو المالك والملك إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم ملك الله
 تعالى، وأن كل من ملك شيئاً في هذا العالم فملكه قاصر، والملك حقا هو الله تعالى،
 قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ
 يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧]،
 ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ الْمُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
 وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ١ - ٣].

وقال تعالى مدلا على تدبيره للعالم؛ علويّه وسفليّه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
 وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
 فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ
 يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ
 ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴿١٥﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
 وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٥﴾﴾ فالقُ الإصباحُ وجعلَ الليلَ سكناً

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ
لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي
أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ
الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ
حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ
مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾
[الأنعام: ٩٥ - ٩٩].

ويدخل في ذلك قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا
نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي
رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ٢ - ٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ
الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ وَالْقَلْبَ

فِي الْأَرْضِ رَوَّسِكَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَزًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتْ
وَيَا لِنَجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ
﴿١٩﴾ [النحل: ١٤ - ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾
[الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]،
وهكذا يتعرف الله ﷻ على عباده في هذا الكتاب الذي جعله يهدي للتي هي
أقوم وإلى تحقيق هذا التوحيد ليؤدي إلى حسن التوكل على الله ﷻ، وذلك لعلم
العبد وتيقنه أن الأمر لله ﷻ من قبل ومن بعد، وأنه تعالى: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ ﴿١٦﴾
[البروج: ١٦]، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ
الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ وَالْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ
بَأْسِكُمْ كَذَلِكَ يَتَرَنَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ [النحل: ٨١ - ٨٢]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى
إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ
الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مَنْ
هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ بَسَاطًا﴾ ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ [نوح: ١٩ - ٢٠]، وقال تعالى:

﴿الْمَرْتَوْأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، فهو تعالى الخالق الرازق المالك المدبر لهذا العالم علويّه وسفليّه.

ومنها دلالة القرآن على أن الذي بيده النفع والضر هو الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، في آيات كثيرات فإن الذي ينفع ويضر ويحلب ويدفع ويخفف ويرفع هو الله ﷻ، المالك لهذا العالم، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ [الأنعام: ١٧ - ١٨]، بل إن الكفار على ما تقدم لم يكونوا يخالفون في إثبات هذا النوع من التوحيد، إذ من المقرر في كل فطرة أن الله ﷻ هو المتفرد بملك هذا العالم والتصرف فيه؛ تعالى الله ﷻ عن قول الملحدين علوا كبيرا، فهو تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

قال ابن كثير رحمته الله: ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿الْمُتَعَالِ﴾؛ أي: على كل شيء.

فسبحان الله الذي لا يعجزه شيء ولا يعزب عنه شيء، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾
[فاطر: ٤٤]، ويتلخص مما تقدم أن الدلائل على ربوبية الله ﷻ عائدة إلى أمرين:

الأول: دلالة الخلق والإيجاد والتكوين الدالة على القدرة والخلق والحكمة والإتقان والعلم.

الثاني: دلالة الإمداد بعد الإيجاد وهي لا تفارق الأولى إلا أن ذكرها مفردة تبين تصرف الله ﷻ في هذا العالم على أكمل وجه وأحسن تدبير.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ

يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ

الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّهُمُ لَهُمْ

الَّيْلُ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا

الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

وَأَيُّهُمُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

[يس: ٣٣ - ٤٤]، هذه أمثلة ليزداد بها المؤمن إيماناً وإلا فإنها ظاهرة جليلة لكل صاحب فطرة سوية، وبالله التوفيق.

وقال تعالى: ﴿الْم تَرَأَنَّا اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْثُهُ مُمْسِكاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١]، والآيات في هذا كثيرة.

النوع الثاني: مما تضمنته هذه السورة توحيد الألوهية، وهذا مأخوذ من عدة مواطن:

الأول: لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، فهو دال على الألوهية.

الثاني: من قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ومن أسماؤه:

- توحيد الطلب.
- وتوحيد القصد.
- وتوحيد العبادة.
- والتوحيد العملي.

- وتوحيد النية.

وهو: أفراد الله ﷻ بالعبادة، أو قل أفراد الله ﷻ بأفعال المكلفين، وهو التوحيد الذي أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل وشرع من أجله الجهاد، ومن أجل تحقيقه خلقت الجنة والنار، وانقسم الناس بسببه إلى مؤمنين وفجار، وهو حق الله ﷻ على العباد كما صح عن رسولنا الكريم ﷺ؛ محمد والحديث في الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه وأنس رضي الله عنه.

ولما كان هذا التوحيد هو الحق العظيم فقد بينه الله ﷻ في كتابه على أكمل وأوضح بيان، فأخبر أنه خلق العباد لتحقيقه فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأمر به جميع الناس فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

وأرسل من أجله الرسل قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأنزل الله ﷻ به جميع الكتب قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وأعظم القسط ملازمة التوحيد.

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]، وأعظم نور هو التوحيد، وأعظم ظلمة هي الشرك، والصراط المستقيم يدخله ابتداءً التوحيد.

وبيّن أنه شرع الجهاد لتحقيق هذا التوحيد فقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، إلى غير ذلك.

وهذه الكلمة العظيمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥]، وقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]،
وهدى القرآن إلى شروطها وبينها:

فأولها: العلم، قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكِ﴾ [محمد: ١٩].

ثانيها: اليقين، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥].

ثالثها: الإخلاص، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

رابعها: الصدق، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

خامسها: المحبة، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

سادسها: الانقياد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

سابعها: القبول، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ثامنها: الكفر بالطاغوت، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهدى القرآن إلى هذه الشروط على أكمل وجه وأتم بيان حتى لم يدع لمحتج حجة.

وكم ساق من الأدلة والشواهد موضحة لمعناها وسائرة على مبناها؛ من تضمن النفي والإثبات قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٥ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وغير ذلك مما في بابه.

وذكر لها من الأسماء الكثير؛ دلالة على عظم هذه الكلمة وهداية للناس إلى محبتها والعمل بها، فساها كلمة التقوى قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ

الْقَوِيُّ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴿[الفتح: ٢٦]﴾، وسماها الكلمة قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٨]، وسماها العروة الوثقى قال تعالى: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهي كلمة التوحيد وكلمة الإخلاص والمثل الأعلى على قول لأهل العلم، في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

ومن هدى القرآن بين نواقضها للتتقى وتُحذِر، وأذكر هنا أشهرها؛ وهو ما ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نواقض الإسلام قال:

(اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض:

الأول: الشرك في عبادة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢] ومن ذلك دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والنذر والذبح لهم.

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم فقد كفر إجماعاً.

الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر.

الرابع: من اعتقد أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه، فهو كافر.

الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فقد كفر؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

السابع: السحر، ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف، إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطرا، وأكثر ما يكون وقوعا، فينبغي للمسلم أن يحذرهما، ويخاف منها على نفسه، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم.

وهذه أشهر النواقض وإلا فإن نواقض الإسلام قولية وفعلية واعتقادية) اهـ.

ومن هدى الله **عَلَيْكَ** لها أن أخبر بحال أصحابها في الدنيا والآخرة؛ دعوة إلى العمل بها وبشارة لأهلها، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَا

بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، فذكر الله تعالى طاعته؛ فهو أعم من ذكر اللسان.

وقال تعالى مخبرا عن حالهم في القبور: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصِيلَةٌ حَمِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤].

ومن هدى القرآن للتوحيد أنه حذر من نقيضه الشرك، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، في غير ذلك من الآيات، وأخبر عن حال أصحاب الشرك مفصلا موضحا مبينا، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]، وهم يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ
 النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمٰوٰتِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴿فاطر: ٣٦ - ٣٨﴾، وقال: ﴿إِنَّ
 شَجَرَتَ الرَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كغلي الحميم
 ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِّنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ
 ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿
 [الدخان: ٤٣ - ٥٠]، إلى غير ذلك.

بينما جلى ما للمؤمنين الموحدين من النعيم المقيم ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ
 ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: ٥٤]، ولا تقوى إلا بالتوحيد ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾
 وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبا: ٣١ - ٣٤]، وقال: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ
 الْأَوْلَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
 عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُنْقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِّنْ
 لَّيْنٍ لَّمْ يَنْغَيِّرْ طَعْمَهُ، وَأَنْهَرٌ مِّنْ حَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّرْبِينِ وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ
 وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ﴿١٥﴾ [محمد: ١٥]،
 وقال تعالى مبينا حال الصنفين الموحدين وغيره ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ
 ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ
 ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ

تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فِكْهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّيْنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِرَتُ الْأَطْرَفُ لَمَّا يَبْطِئُ مِنْهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ
الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾
فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا
عَيْنَانِ نَضَّخَتَا نِ وَنَخَلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٦﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فِكْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾
فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئُنَّ مِنْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ
﴿٧٤﴾ فَيَأِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَيَأِيءُ
الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرُكُ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ [الرحمن: ٤٣ - ٧٨]، إلى
غير ذلك مما يطول به المقام.

قال ابن القيم رحمته الله في "مدارج السالكين" (٣/٤٥٠): (إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل

بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبي من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم) اهـ.

وقال **رحمته** في "إغاثة اللفهان": (وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن) اهـ.

فضل التوحيد

فضائل التوحيد كثيرة منها:

١- أنه عبادة لرب العالمين، ومؤدي إلى مرضاته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿الذاريات: ٥٦﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩) ﴿النساء: ٦٩ - ٧٠﴾، وهو رأس التقوى؛ إذ أن كلمة الإخلاص هي كلمة التقوى، قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، وكلم في القرآن من آيات بينات وأدلة واضحات تبين حال المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حِدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا (٣٣) وَكَأْسَادِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا (٣٥)﴾ [النبا: ٣١ - ٣٥]، على ما يأتي بيانه في آخر مبحث.

٢- سبب الأمن، قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) [الأنعام: ٨٢]، والظلم هنا؛ الشرك على ما يأتي إن شاء الله.

٣- سبب للحياة السعيدة، قال الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴿النحل: ٩٧﴾، وكل آية فيها عمل صالح، فالتوحيد داخل فيه دخولا أولياً.

٤- سبب للتمكين والاستخلاف، قال الله ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

٥- سبب لعصمة الدم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، وقد ثبت عن النبي ﷺ من أوجه كثيرة قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» متفق عليه.

٦- سبب لحفظ المال، قال الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، وقد تقدم الحديث وفيه «فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» متفق عليه.

٧- سبب لرضى الله ﷻ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وعند مسلم: «إن الله يرضى لكم أن

تعبده ولا تشركوا به شيئاً»، ومعلوم أن ما رضىه الله **عَبَّك** فهو يحبه ويثيب عليه.

٨- سبب للتقوى، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١١﴾ [البقرة: ٢١]، والتقوى سبب للدرجات العلى على ما تقدم ويأتي، وسبب للكرامة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣].

٩- سبب لمغفرة الذنوب قال: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي حديث أنس **رضي الله عنه** عند الترمذي: «يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

١٠- سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومن عذاب القبر، وفي الحديث: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة» أخرجه مسلم عن عثمان **رضي الله عنه**، وفيها «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله».

١١- سبب لبركة الأرزاق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، وكم من أمم كانت في غاية من القلق والذلة فلما استقامت على توحيد الله ﷻ تغير حالها، ويقول: ﴿وَيَقَوْمٍ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وأول ما يدخل في الاستغفار تحقيق التوحيد وتجريده مما يشوبه من الشركيات.

١٢- سبب لتفريج الكرب، ولهذا جاء في قصة ذي النون عليه السلام أنه توسل إلى الله بالتوحيد فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قال الله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَنَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآمُونِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وفي الدعاء المحفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض، ورب العرش الكريم»، متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

١٣- أعظم حسنة، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢]، ويوضح ذلك حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عند الترمذي: «إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل

مثل مد البصر، ثم يقول: أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم، قال: «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»، وحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عند أحمد في وصية نوح لولده، قال عليه السلام: «إن نبي الله نوحاً رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: أمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، أمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأرضين السبع، لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع، والأرضين السبع، كن حلقة مبهمه، قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر، قال: قلت أو قيل يا رسول الله: هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان قال: لا، قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: لا، قال: الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: لا، قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا، قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: «سفه الحق، وغمص الناس».

١٤- أفضل ما يلهج به الإنسان، فعند الترمذي من حديث جابر رضي الله عنه

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الذكر لا إله إلا الله».

١٥- من حققه دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وعند الشيخين من

حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عرضت علي الأمم، فرأيت

النبي صلى الله عليه وسلم ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه

أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى صلى الله عليه وسلم

وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى

الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا

يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس

في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم

الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام

ولم يشركوا بالله، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ما الذي

تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا

يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن

يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم؟» ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني

منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة».

١٦- تثبت المؤمن تبع له، قال الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ
الَّتَابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا
يَشَاءُ﴾ [٢٧] ﴿إبراهيم: ٢٧﴾.

١٧- من فضله وجوب تقديمه في الدعوة وغيرها، وفي الصحيحين عن
ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذًا إلى اليمن، قال: «إنك تقدم على
قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله،
فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا،
فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم،
فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم»، وقد أجمع الرسل على
وجوب تقديمه، وقصصهم في القرآن طافح بذلك، قال الله عز وجل عن نوح عليه السلام
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهكذا هود يقول لهم:
﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [٦٥] [الأعراف: ٦٥]، وجميع الرسل
على هذا المنوال كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا
اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

١٨- سبب لقبول العمل، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾
 [المائدة: ٢٧]، بينما قال في الكفار: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً
 مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، فلا يقبل الله من عامل عملا ما لم يكن موحدا، وفي
 الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، ابن جدعان كان في
 الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم
 يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

١٩- وما يدل على فضله المنزلة الرفيعة لأهله عند الله ﷻ، قال الله ﷻ:
 ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا
 يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال تعالى:
 ﴿أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجُرْمِينِ﴾ [٣٥] ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [٣٦] [القلم: ٣٥ - ٣٦]، وفي
 البخاري عن سهل قال: مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ما تقولون في
 هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن
 يستمع، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون في
 هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن
 لا يستمع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

٢٠- مما يدل على فضله اتفاق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على

الدعوة إليه.

٢١- أن الله **عَلَّمَ** شرع الجهاد لإعلاء هذه الكلمة، ولو لم تكن في المنزلة الرفيعة ما كان ثمنها إزهاق النفس التي هي أعلى شيء عند الإنسان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةِ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

وفضائل التوحيد كثيرة عند التفصيل ولكن هذه إشارات وإجماليات تكون طريقا إلى غيرها.

فصل: خطر الشرك

هو الذنب العظيم الذي لا يغفره الله ولا يرضاه، وذلك لأن فيه من التعدي على حق الله ﷻ ما لا يجوز عقلا ولا شرعا ولا فطرة ولا قدرا، ولذلك وصفه الله ﷻ بعدة أوصاف منها:

١- أنه الذنب العظيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) وفي الحديث: أي الذنب أعظم؟، قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»، أخرجاه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٢- أنه الذنب الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨].

٣- أنه يخلد صاحبه في النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْكُفْرِينَ﴾ (٥٠) [الأعراف: ٥٠]، ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠) [الأعراف: ٤٠].

٤- أنه الحياة الضنك: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤]، وأشد أنواع الإعراض هو إعراض المشركين والكافرين.

٥- أنه محبط لجميع الأعمال الصالحة إن وجدت: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال: ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَةُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١].

٦- ووصف أصحابه بأنهم لا يعقلون في عدة مواطن.

٧- ووصف أصحابه بأنهم لا يفقهون في عدة آيات.

٨- ووصف أصحابه بأنهم لا يعلمون في عدة آيات، ومن هذا حاله فهو أجهل الناس بربه وبنفسه.

٩- وهو المذموم، قال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ [الإسراء: ٢٢].

١٠- سبب للعن والطرده من رحمة الله: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [المائدة: ٧٨]، وقال: ﴿ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف:

٤٤]، وقال: ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

١١- وسمى أصحابه بالكاذبين والمكذبين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ

كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ [الزمر: ٣٢].

١٢- وهو الملووم المدحور: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا

مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ [الإسراء: ٣٩].

١٣- سمي أصحابه بالمتكبرين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ

إِلَّا اللَّهُ يُسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ [الصفات: ٣٥]، ﴿إِلَّا إِلَٰهَ ائِيلِيسَ اُسْتَكْبَرَّ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٦٠﴾ [الزمر: ٦٠]،

[ص: ٧٤]، وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ [الزمر: ٦٠]،

والكبر بطر الحق كما صح عن رسول الله ﷺ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في مسلم
وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عند أحمد.

١٤- وسماهم بالمعرضين قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ

فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴿٥٧﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ [الجن: ١٧]، ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةَ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ [القمر: ٢]، وقال:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ [يس: ٤٦]، وفي

حديث أبي واقد الليثي: «وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»، أخرجه

البخاري.

١٥- أنهم غافلون: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾
 [الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]،
 وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]، وقال: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

١٦- شبههم بالأنعام بل هم أضل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ
 كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ
 لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

١٧- صاحب الشرك حيران، قال تعالى: ﴿كَالَّذِي أُسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي
 الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُوذِنَا قُلْ إِنَّكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمرْنَا
 لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

١٨- ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وهذا وصف
 لهم في آيات كثيرات، صم عن سماع الحق، وبكم عن النطق به، وعمي عن
 معرفته، وهم لا يعقلونه مع علمهم بكثير من أمور الدنيا: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

١٩- طبع الله على قلوبهم بسبب إعراضهم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩]، وقال: ﴿وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ووصفت قلوبهم بأقبح الصفات؛ منها: أنها غلف ومريضة وعمي ولا تفقه ولا تعقل وعليها أفعال وأنها تشمئز من سماع الحق إلى غير ذلك.

٢٠- وهم الضالون والمغضوب عليهم، قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقال: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]، في آيات كثيرات.

٢١- وهم الكافرون في آيات كثيرات.

٢٢- وهم المشركون في آيات كثيرات.

٢٢- وهم شر البرية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

وكم لهم من الأوصاف الذميمة في كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ؛ بيانا لضلالتهم وشرهم وحالهم في الدنيا والآخرة، فلا أشر منهم وأضل وأكذب وأظلم، فقد ضيعوا حق الله ونسوه فهم لما سواه أنسى ﴿نَسُوا اللَّهَ فأنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

النوع الثالث: مما دلت عليه هذه السورة وتضمنته؛ توحيد الأسماء

والصفات، وبيانه في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ﴾، و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿مَلِكٍ﴾، ﴿مَلِكٍ﴾، وكذا صفة الغضب وغير ذلك.

وطريقة أهل السنة في باب الأسماء والصفات؛ ما قرره شيخ الإسلام وغيره.

قال **رحمته الله** في "التدمرية": (فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله؛ نفيًا وإثباتًا فيثبت لله ما أثبتته لنفسه، ويُنفى عنه ما نفاه عن نفسه).

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها، إثبات ما أثبتته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه - مع ما أثبتته من الصفات - من غير إلحاد، لا في أسماؤه ولا في آياته، فإن الله ذم الذين يلحدون في أسماؤه وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِيهِ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت: ٤٠]، فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات، إثباتا بلا تشبيه، وتنزيها بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد للإلحاد والتعطيل.

والله ﷻ بعث رسله بإثبات مفصل، ونفي مجمل، فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، قال أهل اللغة: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي نظيرا يستحق مثل اسمه، ويقال مُسَامِيًّا يُسَامِيهِ، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: هل تعلم له مثلاً أو شبيهاً.

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ۝٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ۝١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴿١﴾ [الفرقان: ١ - ٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّمِمْ مِّنْ إِيحَاهُمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّمِمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَىٰ الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنٰبِكُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُحْصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴿إلى قوله: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصفات: ١٤٩ - ١٨٢]، فسبح نفسه عما يصفه المفترون المشركون، وسلّم على المرسلين،

لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك، وحمد نفسه إذ هو سبحانه المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات.

وأما الإثبات المفصل، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته، كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤] ، وقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ [البروج: ١٤ - ١٦] ، ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ [الحديد: ٣ - ٤] ، وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨] .

وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وقوله: ﴿

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] ، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ لَهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ

عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣] ، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقَّتْ

اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [غافر:

١٠] ، وقوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴾

[البقرة: ٢١٠] ، وقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ

كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء: ١٦٤] ، وقوله:

﴿ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم: ٥٢] ، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ

يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص: ٦٢] ، وقوله:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ

الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ

اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمَصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في أسماء الرب
تعالى وصفاته، فإن في ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات
وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل، فهذه طريقة
الرسول صلى الله عليهم أجمعين) اهـ.

وقال في "الواسطية": (ومن الإيمان بالله:

- الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه.

- وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ.

من غير: تحريف ولا تعطيل، ومن غير: تكيف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن

الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ [الشورى: ١١].

- فلا ينفون عنه: ما وصف به نفسه.

- ولا يحرفون: الكلم عن مواضعه.

- ولا يلحدون في: أسماء الله، وآياته.

- ولا يمثلون: صفاته بصفات خلقه.

- لأنه سبحانه؛ لا سمي له، ولا كفو له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه ﷻ.

- فإنه سبحانه؛ أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من خلقه.

- ثم رسله صادقون مصدقون؛ بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون.

- ولهذا قال ﷺ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢].

- فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

- وهو سبحانه قد جمع فيها وصف وسمى به نفسه بين: النفي والإثبات.

- فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون.

- فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين. وقد دخل في هذه الجملة:

- ما وصف به نفسه في «سورة الإخلاص» التي تعدل ثلث القرآن.

- حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

- وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه، حيث يقول: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ - أي: لا يكرثه ولا يثقله - حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة؛ لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح) اهـ.

ثم مثل لمجموعة من أسماء الله وصفاته مشيراً إلى ثبوت ما عداها، وقد تكلمت عن هذا النوع من التوحيد في عدة كتب من كتبي لحاجة الناس إليه ولأن الله ﷻ عرّف خلقه بها ليعرفوه وليتعبدوا له بها، وقد تضمنت هذه السورة شيئاً من ذلك على ما تقدم بيانه وبالله التوفيق^(١).

(١) نقلت ما تقدم ذكره من أنواع التوحيد وفضله وخطر الشرك؛ من كتابي "فتح المجيد

ليان هداية القرآن إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد".

أقسام التوسل

وفي هذه الآيات من العلوم حاجة العبد إلى التوسل بأسماء الله وصفاته، إذ هي من أعظم أسباب استجابة الدعاء؛ بل أعظمها على الإطلاق، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال القرطبي رحمته الله: قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رازق ارزقني، يا هادي اهديني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تب علي، هكذا، فإن دعوت باسم عام قلت: يا مالك ارحمني، يا عزيز احكم لي، يا لطيف ارزقني، وإن دعوت بالأعم الأعظم فقلت: يا الله، فهو متضمن لكل اسم، ولا تقول: يا رزاق اهديني، إلا أن تريد يا رزاق ارزقني الخير، قال ابن العربي: وهكذا، رتب دعائك تكن من المخلصين) اهـ.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو ولم يثن على الله ولم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عجل هذا»، أخرجه أبو داود، وقد تقدم، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض»، إلى غير ذلك من الأحاديث.

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

ومن أنواع التوسل المشروع التوسل بالعمل الصالح، قال الله تعالى مخبرا عن دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَسْمِعْنَا مَنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا، ولا مالا فنأى بي في طلب شيء يوما، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت والقدح على يدي، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا، فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج»، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم، كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين، فجاءتني، فأعطيتهما

عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتخرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها»، قال النبي ﷺ: «وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراً، فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون» متفق عليه.

ومنها التوسل بدعاء الرجل الصالح، والأمثلة على ذلك كثيرة وبالله التوفيق.

فعلى المسلم أن يحقق التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ولا يكون ذلك إلا بعد العلم، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وقلنا بأن التوحيد لا يمكن تحقيقه إلا مع العلم لأن أكثر الناس يجهلون معنى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا

اللَّهُ؛ بل زد على ذلك أنهم قد يفسرونها بما يكون سببا للاعتقادات الباطلة،
مثل قولهم (لا موجود إلا الله)، أو (لا معبود إلا الله)، وهكذا تفسيرهم لها
بـ(أن لا خالق إلا الله) و(لا رازق إلا الله)، ومعناها الحق (لا معبود بحق إلا
الله)، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ
الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

هذا إخبار بحال الموحد مع الله ﷻ أنه يعبد الله ﷻ حال كونه مستعينا به على طاعته، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ﷻ.

قال الشوكاني في فتح القدير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قراءة السبعة وغيرهم بتشديد الياء، وقرأ عمرو بن فائد بتخفيفها مع الكسر وقرأ الفضل والرقاشي بفتح الهمزة وقرأ أبو السوار الغنوي «هياك» في الموضعين وهي لغة مشهورة.

والضمير المنفصل هو «إيا» وما يلحقه من الكاف والهاء والياء هي حروف لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب كما ذهب إليه الجمهور، وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص، وقيل للاهتمام، والصواب أنه لهما ولا تراحم بين المقتضيات، والمعنى: نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل.

قال ابن كثير: وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظا له كما تقرر في علم

المعاني، والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد، وقيل: إن المقام لما كان عظيماً لم يستقل به الواحد استقصاراً لنفسه واستصغاراً لها، فالمجيء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، وإطلاق الاستعانة لقصد التعميم) اهـ.

وقال ابن كثير **رحمته**: (العبادة في اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبغير معبد أي مذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف).

وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحرص أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله **عز وجل**، وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى:

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ

هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَابِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ

وَكَيْلًا﴾ [الزمل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة

لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فهذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنی وإرشاد لعباده بأن يشنوا عليه بذلك ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، وفي صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي - أو قال فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل»، وقال الضحاک عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ يعني إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك وإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها.

وقال قتادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم، وإنما قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم والله أعلم. فإن قيل: فما معنى النون في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ فإن كانت للجمع فالداعي واحد وإن كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام؟ وقد أجيب بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم ولا سيما إن كان في جماعة، أو إمامهم فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، قيل: إذا كنت داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيبُ﴾، وإن كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله ﷻ وفقرهم إليه، ومنهم من قال: إياك نعبد ألطف في التواضع من إياك عبدنا لما في الثاني من تعظيم نفسه من جعله نفسه وحده أهلا لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبد حق عبادته ولا يشني عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى كما قال بعضهم:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

وقد سمي الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فسماه عبدا عند إنزاله عليه وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (١٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١٨) ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (١٩) [الحجر: ٩٧ - ٩٩] اهـ.

وللإمام ابن القيم كلام نفيس على هذه الآية، فقال في "المدارج" (١/ ٧٤-٨٠): (وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] .

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى، وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصفهما لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

والعبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له، لم تكن عابدا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا، ومن هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبا لهم، بل هو غاية مطلوبهم، ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربا للعالمين وخالقا لهم، فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوُكَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]، ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

والاستعانة تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغناؤه عنه، وقد

يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

والتوكل معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهذان الأصلان وهما التوكل، والعبادة قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

الثاني: قول شعيب ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨ - ٩].

السادس: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]،

إذا عرفت هذا، فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام:

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» .

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاذه، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

ومقابل هؤلاء القسم الثاني، وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عوناً على طاعته كان مبعداً له عن مرضاته، قاطعاً له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤه له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبتة له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبتة، ويعامله بلطفه، فيظن بجهله أن الله لا يجب ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا حملة على الأقدار وعتابه الباطن لها، كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إلي؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده، قال الله تعالى

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]، أي ليس كل من

أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي، ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخول فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه،

فذلك من هوانه علي، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له أيصبر فأعطيه أضعاف
أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط فيكون حظه السخط؟ .

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال:
لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي، فأخبر أن الإكرام
والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على
الكافر لا لكرامته، ويقتصر على المؤمن لا لإهنته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته
ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا
وعلى هذا، وهو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] اهـ.

وله كلام نفيس بعد هذا في نفس الموطن.

ومنه قوله **كَلِمَاتِهِ**: (والتوكل معنى يلتئم من أصليين: من الثقة، والاعتماد،
وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهذان الأصلان
وهما التوكل، والعبادة قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا
أحدها.

الثاني: قول شعيب ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى ﴿وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٩) [المزمل: ٨ - ٩].

السادس: قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] اهـ.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، شامل لجميع أنواع العبادة سواء كانت القولية أو الفعلية أو الاعتقادية، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال والمعتقدات كما عرفه بذلك شيخ الإسلام رحمته الله تعالى.

وقال ابن الأمير الصنعاني في "تطهير الاعتقاد": (الأصل الخامس: أن العبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل ولم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولي أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع كما في "الكشاف".

ثم إنَّ رأس العبادة وأساسها التوحيدُ لله الذي تفيده كلمته التي إليها دعت جميع الرسل، وهي قول (لا إله إلا الله)، والمراد اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها، لا مجرد قولها باللسان.

ومعناها: إفراد الله بالعبادة والإلهية، والنفي والبراءة من كلِّ معبودٍ دونه، وقد علم الكفار هذا المعنى؛ لأنَّهم أهل اللسان العربي، فقالوا: ﴿أَجْعَلُ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجْجَبٌ﴾ [ص: ٥].

إذا عرفتَ هذه الأصول فاعلم أنَّ الله تعالى جعل العبادة له أنواعاً: اعتقادية: وهي أساسها، وذلك أن يعتقد أنَّه الربُّ الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، ويده النفع والضرر، وأنَّه الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنَّه لا معبود بحق غيره، وغير ذلك من لوازم الإلهية.

ومنها لفظية: وهي النطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقد ما ذكر ولم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله، وكان كإبليس، فإنَّه يعتقد التوحيد، بل ويُقرُّ به كما أسلفناه عنه، إلا أنَّه لم يمثّل أمر الله بالسجود فكفر، ومن نطق بها ولم يعتقد حقن ماله ودمه وحسابه على الله، وحكمه حكم المنافقين.

وبدنية: كالقيام والركوع والسجود في الصلاة، ومنها الصوم وأفعال الحج والطواف.

ومالية: كإخراج جزء من المال امثالاً لما أمر الله تعالى به، وأنواع الواجبات والمندوبات في الأموال والأبدان والأفعال والأقوال كثيرة، لكن هذه أمهاتها.

وإذا تقرّرت هذه الأمور، فاعلم أنّ الله تعالى بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم يدعون العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، لا إلى إثبات أنّه خلّقهم ونحوه، إذ هم مقرّون بذلك، كما قررناه وكررناه، ولذا قالوا ﴿أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾؛ أي: لنفرد به بالعبادة ونخصه بها من دون آلهتنا، فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا إنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد، وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره، وأشركوا معه سواه، واتخذوا معه أندادا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢)؛ أي: وأنتم تعلمون أنه لا ند له، وكانوا يقولون في تلبيتهم للحج: «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك»، وكان يسمعون النبي ﷺ عند قولهم «لا شريك لك» فيقول: «قد قد»؛ أي: أفردوه ﷻ لو تركوا قولهم: «إلا شريكا هو لك»، فنفس شركهم بالله تعالى إقرار به تعالى.

كما قال تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾ [القصص: ٦٢]،
 ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿١٦٥﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فنفس اتخاذ
 الشركاء إقرار بالله تعالى، ولم يعبدوا الأنداد بالخضوع لهم والتقرب بالنذور
 والنحر لهم؛ إلا لاعتقادهم أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم لديه.

فأرسل الله الرسل تأمرهم بترك عبادة كل ما سواه، وتبين أن هذا الاعتقاد
 الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، وأن التقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون
 إلا لله وحده، وهذا هو توحيد العبادة، وقد كانوا مقرين - كما عرفت في الأصل
 الرابع - بتوحيد الربوبية، وهو أن الله هو الخالق وحده والرازق وحده.

ومن هذا تعرف أن التوحيد الذي دعتهم إليه الرسل من أولهم وهو نوح
 ﷺ، إلى آخرهم وهو محمد بن عبد الله ﷺ، هو توحيد العبادة، ولذا تقول
 لهم الرسل: ﴿الْأَتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وقد كان المشركون منهم من يعبد الملائكة ويناديهم عند الشدائد، ومنهم
 من يعبد أحجارا ويهتف بها عند الشدائد، وهي في الأصل صور رجال صالحين
 كانوا يحبونهم ويعتقدون فيهم، فلما هلكوا صوروا صورهم تسليا بها، فلما طال
 عليهم الأمد عبدوهم، ثم زاد الأمد طولا فعبدوا الأحجار، ومنهم من يعبد
 المسيح، ومنهم من يعبد الكواكب، ويهتف بها عند الشدائد، فبعث الله محمدا
 يدعوهم إلى عبادة الله وحده، بأن يفردوه بالعبادة كما أفردوه بالربوبية،

بربوبيته للسموات والأرض، وأن يفردوه بمعنى ومؤدى كلمة «لا إله إلا الله»، معتقدين لمعناها، عاملين بمقتضاها، وأن لا يدعوا مع الله أحدا، وقال تعالى:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، أي: من شرط الصدق في الإيمان بالله أن لا يتوكلوا إلا عليه، وأن يفردوه بالتوكل كما يجب أن يفردوه بالدعاء والاستغفار، وأمر الله عباده أن يقولوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولا يصدق قائل هذا إلا إذا أفرد العبادة لله تعالى، وإلا كان كاذبا منهيًا عن أن يقول هذه الكلمة؛ إذ معناها: نخصك بالعبادة ونفردك بها دون كل أحد، وهو معنى قوله: ﴿فَأِيَّتَى فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿وَإِيَّتَى فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]؛ لما عرف من علم البيان أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي: لا تعبدوا إلا الله ولا تعبدوا غيره، ولا تتقوا إلا الله ولا تتقوا غيره، كما في "الكشاف".

فإفراد الله تعالى بتوحيد العبادة لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله له، والنداء في الشدائد والرخاء لا يكون إلا لله وحده، والاستغاثة والاستعانة بالله وحده، واللجوء إلى الله والنذر والنحر له تعالى، وجميع أنواع العبادات من الخضوع والقيام تذللًا لله تعالى، والركوع والسجود والطواف والتجرد عن الثياب والحلق والتقصير كله لا يكون إلا لله **عز وجل**، ومن فعل شيئًا من ذلك لمخلوق حي أو ميت أو جماد أو غيره، فقد أشرك في العبادة، وصار من تفعل له هذه الأمور

إلها لعابديه، سواء كان ملكا أو نبيا أو وليا أو شجرا أو قبرا أو جنيا أو حيا أو ميتا، وصار العابد بهذه العبادة أو بأي نوع منها عابدا لذلك المخلوق مشركا بالله، وإن أقر بالله وعبده، فإن إقرار المشركين بالله وتقربهم إليه لم يخرجهم عن الشرك، وعن وجوب سفك دمائهم وسبي ذراريهم وأخذ أموالهم غنيمة، فالله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، لا يقبل عملا شورك فيه غيره، ولا يؤمن به من عبد معه غيره) اهـ.

وهذا الذي ذكره ابن الأمير رحمته الله بالنظر إلى العبادة من جهة الفعل، بينما لو أردنا التفريع أكثر فإن العبادة تكون من جهة الترك، فتارك المحرم أو المكروه - لأن الله عز وجل شرع تركه - مأجور غير مأزور؛ بل ويعتبر عابدا لله عز وجل في ذلك، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: عن محمد صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: «إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها، فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة، فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها، فأنا أكتبها له بمثلها»، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قالت الملائكة: رب، ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصر به، فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جراي»، أخرج به هذا اللفظ مسلم (١٢٩)، وربما جرت العبادة في الأحكام الخمسة فتكزن شاملة لكل فعل فعله العبد وكل نهي تركه العبد من جراء الله عز وجل.

قال ابن القيم رحمته الله في "المدارج": (ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح) اهـ.
ثم انطلق رحمته الله في تفصيلها تفصيلا موسعا وبالله التوفيق.

وعباداة الله عز وجل هي لب وسر وجود هذه الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، معنى يعبدون يوحّدون، وهي دعوة جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهي أمر الله عز وجل لجميع الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وهي قضاء الله وحكمه وأمره، قال الله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وهي أمر الله عز وجل: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وهي وصية الله عز وجل، قال تعالى: ﴿قُلْ

تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ [الأنعام: ١٥١]، وهي سبيل المرشدين: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، إلى غير ذلك مما يذكر في هذا الباب العظيم، وقد بينت ذلك بتوسع وتفريع والحمد لله؛ في كتابي هداية القرآن للتوحيد.

ومن السنة أنها حق الله ﷻ على العبيد، ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العبيد وما حق العبيد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، فكررها ثلاثا، قال: «حق الله على العبيد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العبيد على الله أنهم إن فعلوا ذلك أن لا يعذبهم»، وفي الصحيحين عن أبي أيوب: أن أعرابيا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته - أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله - أو يا محمد - أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لقد وفق، أو لقد هدي»، قال: كيف قلت؟ قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم، دع الناقة»، واتفقا عليه بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«بني الإسلام على خمس، على أن يعبد الله ويكفر بما دونه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وحج البيت، وصوم رمضان»، والأحاديث في هذا الباب لا تكاد تنتهي لكثرة ما دعا رسول الله ﷺ إلى هذا الأمر العظيم، كيف لا وهو سبب رضا الله عن العبد في الدارين، ففي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

شروط قبول العبادة

وقبول العبادة أي كانت متوقفة على شرطين وهما:

١- الإخلاص لله ﷻ بالتوحيد، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿٢﴾

[الزمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وفي الصحيحين عن

عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية وإنما لكل امرئ ما نوى»،

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أغنى الشركاء عن

الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»، والأحاديث في

الباب كثيرة يعسر حصرها، وسنخرج عن الموضوع.

ويدل عليه هنا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فهي دالة على الإخلاص بأوضح

عبارة وأحسن بيان على ما تقدم بيانه.

٢- والشروط الثاني هو: المتابعة لرسول الله ﷺ متابعة لرسول الله ﷺ إذ يقول

الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾

[الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[النساء: ٦٥]، وقال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو

ردّ، متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها، وفي رواية لمسلم «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ»، وسيأتي بيان هذا الشرط في الكلام على قول الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾

قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أي نستعينك يا الله على طاعتك وعلى أمورنا كلها، وذلك لأن العبد عاجز عن كل عمل لم يقدره الله ﷻ عليه، والاستعانة عبادة جليلة وصرها لغير الله ﷻ فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ شرك أكبر مخرج من الملة، وقد قال الله ﷻ مخبرا عن موسى ﷺ قوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ومن أسمائه تعالى المستعان، قال تعالى: ﴿وَرَبِّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [١١٢] ﴿[الأنبياء: ١١٢]، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، أخرجه أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، وكان يقول كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «رب أعني ولا تُعن عليّ»، وقال صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن»، وفي خطبة الحاجة: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه»، ومعلوم ما في قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، من تحقيق ذلك حتى كان من فضلها أنها كنز من كنوز الجنة، كما جاء عن أبي موسى رضي الله عنه في الصحيحين.

وهذه الآية دالة على عظم التوكل على الله ﷻ والاعتماد عليه ومعلوم منزلته، حتى قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]،

وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي كافيه ومعينه، وفي هذا من بيان رحمة الله بعباده ما تعجز الأقلام عن تسطيره، إذ أن العبد يعبد الله ﷻ بإعانتة له تعالى ثم يأجره على ذلك: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

قال ابن رجب رحمته الله في "جامع العلوم والحكم": (فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله ﷻ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه، ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكَّله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً، عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه، إلا الله ﷻ، فمن أعانه الله، فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله) اهـ.

وقال ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/٨٦): (الاستعانة تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغنائاه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به

لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به) اهـ.

والحكمة في تقديم العبادة على الاستعانة ما قاله ابن القيم رحمته الله في "المدارج" (١/٩٧): (وتقديم "العبادة" على "الاستعانة" في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ "العبادة" غاية العباد التي خلقوا لها، و"الاستعانة" وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، متعلق بألوهيته واسمه "الله" ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، متعلق بربوبيته واسمه "الرب" فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، على ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كما قدم اسم "الله" على "الرب" في أول السورة، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم "الرب"، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، إلى آخر السورة. ولأن "العبادة" المطلقة تتضمن "الاستعانة" من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب. ولأن "الاستعانة" جزء من "العبادة" من غير عكس، ولأن "الاستعانة" طلب منه، و "العبادة" طلب له.

ولأن "العبادة" لا تكون إلا من مخلص، و "الاستعانة" تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن "العبادة" حقه الذي أوجبه عليك، و "الاستعانة" طلب العون على "العبادة"، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن "العبادة" شكر نعمته عليك، والله يجب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

والعبودية مخوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدا، حتى يقضي العبد نجه.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما له مقدم على ما به، لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته: طاعتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصص، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقهاء فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقديماً، وسيبويه نص على الاهتمام، ولم ينف غيره.

ولأنه يقبح من القائل أن يعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت، ومن سمعه أنكر ذلك عليه وقال: وغيره أيضاً أعتقت، ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى ﴿وَأِيَّتِي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿وَأِيَّتِي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١]، كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي، وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق) اهـ.

مما تضمنته بيان عقيدة أهل السنة في القدر

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، رد على الجبرية، وفي قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
رد على القدرية.

واعلم - وفقك الله ﷻ لطاعته - أن الناس في باب القدر ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: أهل السنة والجماعة الذين حققوا الإيمان بهذا الركن العظيم من أركان الإيمان الستة، ويؤمنون بأن الخير والشر من الله ﷻ و﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وأنه لن يكون في هذا العالم شيء إلا بمشيئة الله وقدرته النافذة، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ويؤمنون بأن الله ﷻ خالق كل شيء - العباد وأفعالهم - قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في العقيدة الواسطية: (وتؤمن بالفرقة الناجية أهل السنة والجماعة «بالقدر خيره وشره»).

- والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين.

- فالدرجة الأولى: الإيمان: بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا، وعلم: جميع أحوالهم، من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق.

- فأول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب! قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

- فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف. كما قال ﷺ: ﴿الْمُتَعَلِّمُ أَنْبَأَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

- وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا.
 - فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء.
 - فإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه؛ بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات، فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ونحو ذلك.
 - فهذا القدر قد كان ينكره غلاة «القدرية» قديما، ومنكروه اليوم قليل.
 وأما الدرجة الثانية: فهي:

- مشيئة الله تعالى النافذة، وقدرته الشاملة.
 - وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

- وأنه ما في السماوات والأرض، من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد.

- وأنه ﷻ على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات.

- فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

- وقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته.

- وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء.

- ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

- والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم.

- والعبد هو: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم.

- وللعباد قدرة على أعمالهم، وإرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

- كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩] اهـ.

من النقل عن شيخ الإسلام يتبين أنه جمع مراتب الإيمان بالقدر وهي أربعة عند التفصيل، ولا يتم الإيمان بالقدر على وجهه إلا بتحقيقها:

المرتبة الأولى: العلم؛ إذ نعتقد ونجزم أن الله بكل شيء عليم، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، قال الله ﷻ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا أَلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، إلى غير ذلك من الأدلة، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا لَكِنْدِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما وغيره في الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ: «والله أعلم بما كانوا عاملين».

المرتبة الثانية: الكتابة؛ وهي أن الله كتب ما كان وما يكون في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: ٥٢]، وقال تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ﴿٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]، قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ ﴿٤﴾ [الزخرف: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفِئِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، في أدلة كثيرة، ومنها من السنة: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وعرشه على الماء»، أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو، وفي حديث عبادة: «لما خلق الله القلم قال: اكتب، قال: وما أكتب، قال: اكتب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»، في أدلة غير هذه ليس هذا موطن بسطها إلا أني أزيد حديثا وهو ما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة»، فالأول تقدير أزلي وهذا تقدير عمري، وهناك تقدير يومي، قال الله ﷻ: ﴿كُلُّ

يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩]، وتقدير سنوي قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]؛ أي في ليلة القدر، فأمره تعالى قدرًا مقدورًا كما قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]؛ أي مقدور لا يخرج شيء عن علمه وما سطره في اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة النافذة والإرادة الغالبة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، إلى غير ذلك من الآيات، وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله على ما يشاء قادر»، وفي حديث أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما: «إن الله صانع ما شاء لا مكره له».

ومشيئة الله هي المعبر عنها بالإرادة الكونية وتكون في المحبوب وغير المحبوب، وهي واقعة على مقتضى حكمته تعالى ولا بد أن تقع ولا تتخلف بحال فإن الله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٦) [البروج: ١٦].

ثم إن لله إرادة شرعية وهي موافقة للمحبوب، فما أمر الله ﷻ به فهو محبوب إليه، وما نهى الله ﷻ عنه فهو مبغوض إليه، إلا أن هذه الإرادة قد تقع وقد لا تقع، قال الله ﷻ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٣٧) [النساء: ٢٧]، إلى غير ذلك من الأدلة، والإرادتان الكونية والشرعية تجتمعان في حق الطائع وتفترقان في حق العاصي؛ فحقق هذا تسلّم من تحبط المبتدعين الضالين من الجبرية والقدرية، فقد ضلوا في هذا الباب؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق، فالله ﷻ خلق العباد وأفعالهم، وخلق المؤمنين والكفار والمجرمين والأبرار وخلق أفعالهم، فهو الذي يهدي ويضل ويطبع على قلوب المعتدين، قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨) [النساء: ٨٨]، وقال: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦) [الأعراف: ١٨٦]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥]، وقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [يس: ٧-١٠].

وفي قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، قال مجاهد: علم من إبليس المعصية وخلقها لها، وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النجم: ٤٣]، وفي الحديث الذي أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد قول رسول الله ﷺ: «إن الله خالق كل صانع وصنعه» رواه حذيفة عن رسول الله ﷺ، وعند عبد الله بن أحمد في السنة قال سعيد بن جبیر في قول الله تعالى: ﴿يُحَوِّلُ بَيْنَ أَلْمَرَّةِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، قال يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكفر وبين الإيمان وطاعة الله.

فمن حقق هذه المراتب الأربعة فقد حقق الإيمان بالقدر، ومن أنكر مرتبة منها فهو ضال مضل.

فأما إن أنكر العلم فهو كافر مرتدّ حلال الدم، وقد كَفَّر ابن عمر رضي الله عنهما مَعْبَدًا الجهنني لهذه المسألة بعينها، ففي مسلم عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهنني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين - أو معتمرين - فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني»، والذي يحلف به عبد الله بن عمر «لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر»، ثم ذكر حديث عمر بن الخطاب في سؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم، قال عبد الله بن أحمد في السنة: سمعت أبي رضي الله عنه وسأله علي بن الجهم عن من قال: بالقدر يكون كافرا؟ قال: "إذا جحد العلم، إذا قال: إن الله عز وجل لم يكن عالما حتى خلق علما فعلم فجحد علم الله عز وجل فهو كافر"، وأخرج عن سلام أبي المنذر غير مرة وهو يقول: سلوهم عن العلم، هل عِلِمَ أو لم يعلم؟، فإن قالوا قد علم، فليس في أيديهم شيء، وإن قالوا لم يعلم، فقد حلت دماؤهم.

ومن زعم أن الله لم يخلق الشر فهؤلاء ضلال وهم المعتزلة، قال عكرمة بن خالد، سألت يحيى بن أبي كثير عن القدرية، فقال: "هم الذين يقولون إن الله **عَلَّمَ** لم يقدر الشر"، أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٨٩٢).

وعند اللالكائي: "الذين يقولون إن الله لم يقدر المعاصي"، وقد سمي رسول الله **صَلَّى** هذه الطائفة مجوس، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

والقدر سرّ الله **عَلَّمَ** لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا.

قال الطحاوي: (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [٢٣]، [الأنبياء: ٢٣]، فمن سأل لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين) اهـ.

وأما مذهب القدرية النفاة هم في الأصل يعظمون الأمر والنهي والوعد والوعيد ولكنهم نفوا عموم مشيئة الله تعالى ونفوا عموم خلقه، فزعموا أن العبد هو المحدث للمعصية والمحدث للطاعة.

قال ابن أبي العز في "شرح الطحاوية" (٣٢١): (وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا: أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء

الكفر، فَرُّوا إلى هذا، لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار!

فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه! فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه - على قولهم - والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى!! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى اللالكائي، من حديث بقية عن الأوزاعي، حدثنا العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد المكي، عن ابن عباس قال: قيل لابن عباس: إن رجلا قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه، وهو يومئذ أعمى، فقالوا له: ما تصنع به؟ فقال: «والذي نفسي بيده، لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته بيدي لأدقنها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بنساء بني فهر يظفن بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات»، وهذا أول شرك في الإسلام، والذي نفسي بيده ليتهاين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر.

قوله: "وهذا أول شرك في الإسلام"، إلى آخره، من كلام ابن عباس، وهذا يوافق قوله: القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده.

وروى عمر بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدرتي ومجوسي، فقال القدري: إن الله يريد، ولكن الشيطان لا يريد! قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان! هذا شيطان قوي!! وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما!!.

ووقف أعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد، فقال: يا هؤلاء إن ناقتي سرقت فادعوا الله أن يردها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، فارددها عليه! فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك! قال: ولم؟ قال: أخاف - كما أراد أن لا تسرق فسرقت - أن يريد ردها فلا ترد! وقال رجل لأبي عصام القسطلاني: رأيت إن منعني الهدى وأوردني الضلال ثم عذبنني، أيكون منصفاً؟ فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئاً هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء.

وأما الأدلة من الكتاب والسنة: فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣) [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣٠) [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٩) [الأنعام: ٣٩]،

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومنشأ الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا.

فقال الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوبا مرضيا.

وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له.

فليست مقدره ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه، وقد دل على

الفرق بين المشيئة والمحبة - الكتاب والسنة والفترة الصحيحة.

أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب، فقد تقدم ذكر بعضها، وأما

نصوص المحبة والرضا، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]،

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك

والظلم والفواحش والكبر: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة

السؤال، وإضاعة المال» .

وفي المسند: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته» ،

وكان من دعائه عليه ﷺ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك

من عقوبتك، وأعوذ بك منك»، فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول الصفة، والثاني لأثرها المرتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده، لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فأعاذني مما أكره ومنعه أن يحل بي، هي بمشيئتك أيضا، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك، فعياذي بك منك، وعياذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك، ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك، بل هو منك، فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية، إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته.

فإن قيل: كيف يريد الله أمرا ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف تجتمع إرادته له وبغضه وكرهته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقا، وتباينت طرقهم وأقوالهم. فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره. فالمراد لنفسه، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد، والمراد لغيره، قد لا يكون مقصودا لما يريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد

له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاء، وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحجوبه. بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف بمن لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سببا إلى أمر هو أحب إليه من فوته.

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه، تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات، التي هي أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبرائيل، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والدواء والداء، والحياة والموت، والحسن والقيح، والخير والشر. وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه

المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وجعلها مجال تصرفه وتدييره، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتديير مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسماؤه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع العقاب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسماؤه المتضمنة لحلمه ورفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عباده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم».

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير، الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللاتقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبوها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك، فلو قدر عدم الأسباب المكروهة له لتعطلت حكم كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة.

ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر، لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح، التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاتة لله ﷻ والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه، إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟ فهذا سؤال فاسد! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قيل: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضي إليه من الحكم، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه؟ قيل: هذا السؤال يرد على وجهين: أحدهما: من جهة الرب تعالى، وهل يكون محبا لها من جهة إفضائها إلى محبوبه، وإن كان يبغضها لذاتها؟.

والثاني: من جهة العبد، وهو أنه هل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضا؟ فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه، مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه، وحركتها من حيث هي حركة - خير، وإنما تكون شرا بالإضافة، لا من حيث هي حركة، والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير محله، فلو وضع في موضعه لم يكن شرا، فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محلها خيرا في نفسها، وإن كانت شرا بالنسبة إلى المحل الذي حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شرا بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل، حيث وضعه في موضعه، فإنه سبحانه لم يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك. فلا يمكن في جناب الحق تعالى أن يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه، لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه بيده الخير كله، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم

هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرا، فتأمله، فانقطع نسبه إليه هو الذي صيره شرا.

فإن قيل: لم تنقطع نسبه إليه خلقا ومشية؟ قيل: هو من هذه الجهة ليس بشر، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير) اهـ.

وأما مذهب القدرية الجبرية أتباع جهم بن صفوان يقولون إن العبد مجبور على فعله، وحركاته وأفعاله كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار في مهب الريح، ويزعمون أنه لا فعل للعبد أصلا، قال البغدادي في "الفرق بين الفرق": (لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز، كما يقال زالت الشمس ودارت الرحي، من غير أن يكونوا فاعلين أو مستطيعين لما وصفتا به) اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمته الله: (قابل القدرية قوم من العلماء والعباد وأهل الكلام والتصوف فأثبتوا القدر وآمنوا بأن الله رب كل شيء ومليكه وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه خالق كل شيء وربّه ومليكه وهذا حسن وصواب؛ لكنهم قصرُوا في الأمر والنهي والوعد والوعيد وأفرطوا حتى خرج غلاتهم إلى الإلحاد فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

أَشْرَكْنَا وَلَا أَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ ﴿١٤٨﴾ [الأنعام: ١٤٨]...، والمقصود هنا أن من أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر من أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر... اهـ.

وقال كما في "المجموع" (١٠٦/٨): (ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى؛ بل هؤلاء قولهم متناقض لا يمكن أحدا منهم أن يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاشر عليه اثنان) اهـ.

فسبب ضلال الطائفتين أن كل واحدة أخذت بجانب من الأدلة.

قال ابن القيم في "شفاء العليل" (١٩٩/١): (فكل دليل صحيح للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعالى ومشيتته وأنه لا خالق غيره وأنه على كل شيء قدير لا يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات) اهـ.

وقال ابن أبي العز في "شرح الطحاوية" في بيان فساد مذهب الجهمية: (فرأى تلك الأفعال طاعات، لموافقتها فيها المشيئة والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته! وفي ذلك قيل:

أصبحت منفعلا لما يختاره مني، ففعلي كله طاعات!

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية، فإن الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي، لا موافقة القدر والمشيئة، ولو

كان موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين له، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون - كلهم مطيعين! وهذا غاية الجهل.

لكن إذا شهد العبد عجز نفسه، ونفوذ الأقدار فيه، وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين - كان بالله في هذه الحال لا بنفسه، فوقع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال ألبتة، فإن عليه حصنا حصينا «فبي يسمع، وببي يبصر، وببي يبطش، وببي يمشي»، فلا يتصور منه الذنب في هذه الحالة، فإذا حجب عن هذا المشهد وبقي بنفسه، استولى عليه حكم النفس، فهنالك نصبت عليه الشباك والأشراك، وأرسلت عليه الصيادون، فإذا انتفى عنه ضباب ذلك الوجود الطبيعي، فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية محجوبا بنفسه عن ربه، فلما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر، فبقي بربه لا بنفسه) اهـ، والحمد لله رب العالمين.

قوله: ﴿أَهْدِنَا﴾

طلب من الله ودعاء بالهداية، والهداية تنقسم من حيث هي إلى أربعة أقسام:

١- هداية عامة: وهي هداية الخلائق إلى طريق معاشها وما يكون نافعا لها حتى أن الجنين يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا ومع ذلك يتتبع ثدي أمه ليرضع منه، قال الله ﷻ: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

قال الشوكاني رحمته الله: (أي لأنه سبحانه هداهم إلى طريق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شيء فيما خلق له) اهـ.

٢- النوع الثاني من الهداية هي: دلالة التوفيق وهذه خاصة بالله ﷻ، قال الله ﷻ عن نبيه محمد صلوات الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

٣- والنوع الثالث من أنواع الهدايات هو هداية الدلالة والإرشاد، وهذه عامة قال الله ﷻ عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١ - ٢]، وقال الله ﷻ

عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، قال قتادة والسدي ومقاتل لتدعو إلى الإسلام فهو الصراط المستقيم، وقال النبي ﷺ عن هداية الدعاة والعلماء: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خيرا لك من حمر النعم»، أخرجاه عن سهل رضي الله عنه، وقال رسول الله: «الدال على الخير كفاعله»، أخرجاه مسلم عن سهل رضي الله عنه.

٤- النوع الرابع: الهداية إما إلى الجنة وإما إلى النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وقال في شأن الكفار: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

قال الراغب رحمته الله في مفرداته في مادة (هدى): (الهداية دلالة بلطف، ومنه: الهدية، وهوادي الوحش؛ أي: متقدماتها الهداية لغيرها، وخص ما كان دلالة بهديت، وما كان إعطاء بأهديت).

نحو: أهديت الهدية، وهديت إلى البيت، إن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]، قيل: ذلك استعمل فيه استعمال

اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿١١﴾ [آل عمران: ٢١]، وقول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل، والفتنة، والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿٥٠﴾ [طه: ٥٠].

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على السنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣].

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٥]، ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثالث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله، ثم ينعكس، فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدا إلا بالدعاء وتعريف الطرق دون سائر أنواع الهدايات، وإلى الأول أشار بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [السجدة: ٢٤]، ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]؛ أي: داع.

وإلى سائر الهدايات أشار بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]، وكل هداية ذكر الله ﷻ أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة، وهي التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة، وإدخال الجنة، نحو قوله ﷻ: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

[آل عمران: ٨٦]، وكقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ [النحل: ١٠٧]، وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل، والتوفيق، وإدخال الجنة، كقوله عز ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١]، ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ أي: طالب الهدى ومتحريه هو الذي يوفقه ويهديه إلى طريق الجنة لا من ضاده، فيتحرى طريق الضلال والكفر كقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ [التوبة: ٣٧]، وفي أخرى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠٩﴾ [التوبة: ١٠٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿٣﴾ [الزمر: ٣]؛ الكاذب الكفار: هو الذي لا يقبل هدايته، فإن

ذلك راجع إلى هذا وإن لم يكن لفظه موضوعا لذلك، ومن لم يقبل هدايته لم يهده، كقولك: من لم يقبل هديتي لم أهد له، ومن لم يقبل عطيتي لم أعطه، ومن رغب عني لم أرغب فيه، وعلى هذا النحو: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وفي أخرى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقوله: ﴿فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾ [يونس: ٣٥]، وقد قرئ: ﴿يَهْدَى إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾؛ أي: لا يهدي غيره ولكن يهدي؛ أي: لا يعلم شيئا ولا يعرف أي لا هداية له، ولو هُدي أيضا لم يهتد، لأنها موات من حجارة ونحوها، وظاهر اللفظ أنه إذا هُدي اهتدى لإخراج الكلام أنها أمثالكم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وإنما هي أموات، وقال في موضع آخر: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، وقوله **عَلَيْكَ**: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصفوات: ١١٨]، فذلك إشارة إلى ما عرف من طريق الخير والشر، وطريق الثواب والعقاب بالعقل والشرع وكذا قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾

[التغابن: ١١]، فهو إشارة إلى التوفيق الملقى في الروح فيما يتحراه الإنسان وإياه
 عنى بقوله ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧]، وعدي الهداية في
 مواضع بنفسه، وفي مواضع باللام، وفي مواضع بإلى، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْنِمْ
 بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿ وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقال: ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ﴾
 [يونس: ٣٥]، وقال: ﴿ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشَى ﴿١٩﴾ ﴾
 [النازعات: ١٨ - ١٩].

وما عدي بنفسه نحو: ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [النساء: ٦٨]،
 ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات: ١١٨]، ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾
 [الفاتحة: ٦]، ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ [النساء: ٨٨]، ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
 طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ ﴾ [النساء: ١٦٨]، ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى ﴾ [يونس: ٤٣]،
 ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٥].

ولما كانت الهداية والتعليم يقتضي شيئين:

تعريفًا من المعرف، وتعرفًا من المعرف، وبهما تم الهداية والتعليم فإنه متى
 حصل البذل من الهادي والمعلم ولم يحصل القبول صح أن يقال: لم يهد ولم يعلم
 اعتبارًا بعدم القبول، وصح أن يقال: هدى وعلم اعتبارًا ببذله، فإذا كان كذلك

صح أن يقال: إن الله تعالى لم يهد الكافرين والفاسقين من حيث إنه لم يحصل القبول الذي هو تمام الهداية والتعليم، وضح أن يقال: هداهم وعلمهم من حيث إنه حصل البذل الذي هو مبدأ الهداية.

فعلى الاعتبار بالأول يصح أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

وعلى الثاني قوله **عَلَى**: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

والأولى حيث لم يحصل القبول المفيد فيقال: هداه الله فلم يهتد، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ الآية.

وقوله: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١٤٢] وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله [البقرة: ١٤٢ - ١٤٣]، فهم الذين قبلوا هداه واهتدوا به، وقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [١] [الفاتحة: ٦]، ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٨]، فقد قيل: عني به الهداية

العامة التي هي العقل، وسنة الأنبياء، وأمرنا أن نقول ذلك بألسنتنا وإن كان قد فعل ليعطينا بذلك ثوبا كما أمرنا أن نقول: «اللهم صل على محمد» وإن كان قد صلى عليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقيل: إن ذلك دعاء بحفظنا عن استغواء الغواة واستهواء الشهوات، وقيل: هو سؤال للتوفيق الموعود به في قوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقيل: سؤال للهداية إلى الجنة في الآخرة، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فإنه يعني به من هداه بالتوفيق المذكور في قوله ﷻ: والذين اهتدوا زادهم هدى.

والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد لكن قد خص الله ﷻ لفظة الهدى بما تولاه وأعطاه، واختص هو به دون ما هو إلى الإنسان نحو: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، ﴿هُدًى لِّلنَّكَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨]، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٧١]، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [١٣٨]، [آل عمران: ١٣٨]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدُنِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦].

والاهتداء يختص بما يتحراه الإنسان على طريق الاختيار، إما في الأمور الدنيوية، أو الآخروية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَيْسْتَ تَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٩٨﴾ [النساء: ٩٨]، ويقال ذلك لطلب الهداية نحو: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ [البقرة: ٥٣]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِيَنَّكُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران: ٢٠]، ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧].

ويقال المهتدي لمن يقتدي بعالم نحو: ﴿أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٠٤﴾ [المائدة: ١٠٤]، تنبيهاً أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم، وقوله: ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿٩٢﴾ [النمل: ٩٢]، فإن الاهتداء هاهنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية، ومن الاقتداء، ومن تحريها، وكذا قوله: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [النمل: ٢٤]، وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾ [طه: ٨٢]، فمعناه: ثم أدام طلب الهداية، ولم يفتر عن تحريه، ولم يرجع إلى المعصية، وقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ

وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أَوْلَيْتِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦ - ١٥٧]؛ أي: الذين تحروا هدايته وقبلوها وعملوا بها، وقال مخبرا عنهم: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ [الزخرف: ٤٩].

والهدى مختص بما يهدى إلى البيت، قال الأخفش: والواحدة هدية، قال: ويقال للأنثى هدي كأنه مصدر وصف به، قال الله تعالى: ﴿ فَإِن أُحْصِرْتُمْ فَمَا أَسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ﴿ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا ﴾ [الفتح: ٢٥].

والهدية مختصة بالطف الذي يهدي بعضنا إلى بعض، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ [النمل: ٣٥]، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦]، والمهدى الطبق الذي يهدى عليه، والمهداء: من يكثر إهداء الهدية، قال الشاعر:

وإنك مهدهاء الخنا نطف الحشا

والهدى يقال في الهدى، وفي العروس يقال: هديت العروس إلى زوجها، وما أحسن هدية فلان وهديه، أي: طريقته، وفلان يهادى بين اثنين: إذا مشى بينهما معتمدا عليهما، وتهادت المرأة: إذا مشت مشي الهدى) اهـ.

ومن هنا تعلم أن سؤال الله ﷻ الهداية والتوفيق متعين وحتم، وذلك لأنه تعالى مالکها وحده والمستطيع عليها لا غيره، ولهذا السبب أوجب الله علينا أن نسأله الهداية في كل ركعة من صلاتنا زد على ذلك ما يأتي من الأدلة في تعيين سؤال الله ﷻ الهداية.

أسباب الحصول على الهدى التام

قال ابن القيم رحمته الله في "الفوائد": (واعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور هو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره؛ بكونه محبوبا للرب تعالى مرضيا له فيؤثره، وكونه مغضوبا له مسخوطا عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مرید الجميع ما يجب الله منه أن يفعله عازما عليه، ومريدا لترك جميع ما نهى الله عازما على تركه؛ بعد خطوره بالبال مفصلا، وعازما على تركه من حيث الجملة مجملا فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائما به فعلا وتركها فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكما لها:

الأمر الرابع: أمور هدي إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الأمر الخامس: أمر و هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الأمر السادس: الأمور التي هدي إليها تفصيلا من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها، فهذه أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه.

الأمر السابع: يتعلق بالماضي، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها، وإذا كان كذلك فإنما يقال كيف يسأل الهداية وهي موجودة له، ثم يجب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب حاصلة له بالفعل فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام، فأما إذا كان ما يجمله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريد من رشده أكثر مما يريد، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعليه فيه، فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليما وتوفيقا وخلقاً للإرادة فيه وإقدارا له، وخلقاً للفاعلية وتثبيتا له على ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علما وعملا، والتثبيت عليها والدوام إلى الممات، وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلا وتفصيلا وتثبيتا ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبت قلوبنا على دينه) اهـ.

الدعاء بالهداية

لأهمية الهداية والتوفيق لها أوجب الله ﷻ علينا قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة على الصحيح في الصلاة ففي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، متفق عليه، وفي حديث أبي هريرة في مسلم قال: قال رسول الله: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي - أو قال فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل».

قال ابن كثير رحمته الله في تفسيره: (فإن قيل فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب أن لا، ولولا احتياجه ليلا ونهارا إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تشييته على

الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها فإن العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمدّه بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فإنه قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَوَالِكُنَّبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَوَالِكُنَّبِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك والله أعلم.

وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرا، فمعنى قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]،

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد اهدنا الصراط المستقيم إلى آخرها أن الله يقول «هذا لعبدي ولعبي ما سألت».

وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم؛ وهو بدل منه عند النحاة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم.

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠]، وقال الضحاك عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين.

وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم النبيون، وقال ابن جريج عن ابن عباس: هم المؤمنون، وكذا قال مجاهد، وقال وكيع: هم المسلمون، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، والتفسير المتقدم عن ابن عباس رضي الله عنه أعم وأشمل والله أعلم.

وهذا موافق لدعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ

رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٨].

وكان رسول الله ﷺ يدعو كثيرا بالهداية؛ إذ هي من الله، ففي الحديث أبي ذر رضي الله عنه في مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»، ففي مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»، وفي الصحيح عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: قل: «اللهم اهديني وسددني»، وفي رواية «اللهم إني أسألك الهدى والسداد»، وفي دعاء الليل «اللهم اهديني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»، وقد دعا رسول الله ﷺ بالهداية لجملة استجاب الله لمن أراد، فقد قال: «اللهم اهد دوسًا وائت بهم»، أخرجه مسلم، وقال: «اللهم اهد أم أبي هريرة»، فاستجاب الله له، وكان إذا جاءه أحد بالإسلام علمه هذا الدعاء: «اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني»، أخرجه مسلم عن طارق بن أشيم، وفي خطبة الحاجة: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه»، وفي الحديث المشهور الذي علمه الحسن بن علي رضي الله عنهما: «اللهم اهديني فيمن هديت»، إلى غير ذلك من الأدعية في هذا الباب، ومن ذلك حرصه على هداية عمه أبي طالب، ففي الصحيحين عن المسيب بن حزن قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه

رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

الهداية والضلال بيد الله ﷻ

تقدم معنى الهداية وما تفرع منها ونذكر هنا معنى الضلال.

قال الراغب في "مفردات القرآن" مادة (ضل): (الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية، قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج، عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جداً، قال النبي ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»، وقال بعض الحكماء: كوننا مصيبين من وجه وكوننا ضالين من وجوه كثيرة، فإن الاستقامة والصواب يجري مجرى المقرطس من المرمى، وما عداه من الجوانب كلها ضلال.

وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمداً كان أو سهواً، قليلاً كان أو كثيراً، صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء، وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بون بعيد، ألا ترى أنه قال في النبي ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، أي: غير مهتد لما سيق إليك من النبوة، وقال في يعقوب: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، إشارة إلى

شغفه بيوسف وشوقه إليه، وكذلك: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرُنْهَآ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]، وقال عن موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، تنبيه أن ذلك منه سهو، وقوله: ﴿أَنْ تَضَلَّ إِحْدَهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ أي: تنسى، وذلك من النسيان الموضوع عن الإنسان.

والضلال من وجه آخر ضربان:

ضلال في العلوم النظرية، كالضلال في معرفة الله ووحدانيته، ومعرفة النبوة، ونحوهما المشار إليهما بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَآيَاتِهِ الْأَخْرَى فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وضلال في العلوم العملية، كمعرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات، والضلال البعيد إشارة إلى ما هو كفر كقوله على ما تقدم من قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]، وكقوله: ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨]؛ أي: في عقوبة الضلال البعيد، وعلى ذلك قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩]، ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]، كناية عن

الموت واستحالة البدن.

وقوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فقد قيل: عني بالضالين النصارى.

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، أي: لا يضل

عن ربي، ولا يضل ربي عنه: أي: لا يغفله، وقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ

﴿٢﴾ [الفيل: ٢]؛ أي: في باطل وإضلال لأنفسهم.

والإضلال ضربان:

أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وذلك على وجهين: إما بأن يضل عنك الشيء كقولك: أضللت البعير، أي: ضل عني، وإما أن تحكم بضلاله، والضلال في هذين سبب الإضلال.

والضرب الثاني: أن يكون الإضلال سببا للضلال، وهو أن يزين للإنسان

الباطل ليضل كقوله: ﴿لَهَمَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا

أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١١٣]، أي يتحرون أفعالا يقصدون بها أن تضل، فلا يحصل

من فعلهم ذلك إلا ما فيه ضلال أنفسهم، وقال عن الشيطان: ﴿وَلَا ضَلَّلْنَاهُمْ

وَلَا أَمِينَهُمْ﴾ [النساء: ١١٩]، وقال في الشيطان: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا

كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]،

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وإضلال الله تعالى للإنسان

على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وهو أن يضل الإنسان فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة، وذلك إضلال هو حق وعدل، فالحكم على الضال بضلالة والعدول به عن طريق الجنة إلى النار عدل وحق.

والثاني: من إضلال الله، هو أن الله تعالى وضع جبلة الإنسان على هيئة إذا راعى طريقا، محمودا كان أو مذموما، ألفه واستطابه ولزمه، وتعذر صرفه وانصرافه عنه، ويصير ذلك كالطبع الذي يأبى على الناقل، ولذلك قيل: العادة طبع ثان.

وهذه القوة في الإنسان فعل إلهي، وإذا كان كذلك - وقد ذكر في غير هذا الموضع أن كل شيء يكون سببا في وقوع فعل - صح نسبة ذلك الفعل إليه، فصح أن ينسب ضلال العبد إلى الله من هذا الوجه، فيقال: أضله الله لا على الوجه الذي يتصوره الجهلة، ولما قلناه جعل الإضلال المنسوب إلى نفسه للكافر والفاسق دون المؤمن، بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن فقال: ﴿وَمَا كَانَتْ

اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ [التوبة: ١١٥]، ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ ﴿

[محمد: ٤ - ٥]، وقال في الكافر والفاسق: ﴿فَتَعَسَّأَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨]،

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾

[غافر: ٧٤]، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وعلى هذا النحو تقلب الأفتدة في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَتَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]، والختم على القلب في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وزيادة المرض في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. اهـ.

من رحمة الله ﷻ أنه يهدي من يشاء من عباده فضلا منه تعالى ومن حكمته أنه يضل من يشاء عدلا منه وما ربك بظلام للعبيد، قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء: ٨٨]، وقال: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: ١٨٦]، إلى غير ذلك وفي حديث أبي ذر الذي أخرجه مسلم قال الله ﷻ: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [مآكات لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ٩٩].

قال ابن كثير **رحمته**: (ولو شاء ربك يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۗ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۗ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ [يونس: ٩٩]، أي تلزمهم وتلجئهم حتى يكونوا مؤمنين؛ أي ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]، ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الفصص: ٥٦]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [٤٠]، [الرعد: ٤٠]، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ - وهو الخبال والضلال - عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، على الذين لا يعقلون أي حجج الله وأدلتها، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل) اهـ.

وقال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى من هداه الله فإنه لا مضل له ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم) اهـ.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئا ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وهنا سؤال يطرحه القدرية ومن إليهم ممن يعترض على الله ﷻ (بلم) كيف يهدي الله هذا؟ ويضل هذا؟ ، وهذا السؤال مبني على عقيدتهم من وجوب فعل الأصلح للعبد .

فأقول الحمد لله الفعال لما يريد الذي لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، فالملك له وحده تعالى وهو الحكيم الخبير ، يهدي من يشاء بفضله ؛ لعلمه أنه أهلا للهداية ، ويضل من يشاء بعدله -وما ظلمه- ولكنه علم أنه أهلا للغواية فأوكله إلى نفسه وهواه ، فتسلط عليه الشيطان والعياذ بالله .

قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

قال في "المفردات": (الصراط الطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ويقال له سراط) اهـ.

وقال: (الصراط الطريق المستسهل أصله من سرطت الطعام وزردته؛ ابتلغته فقبل سراط تصورا أنه يتلعه سالكه أو يتلعع سالكه) اهـ.

قال ابن القيم في "المدارج": (وذكر الصراط المستقيم مفردا معرفا تعريفين: تعريفا باللام، وتعريفا بالإضافة، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له، وقال ابن مسعود خط لنا رسول الله ﷺ خطأ، وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره، وقال: «هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق) اهـ.

والصراط المستقيم هنا هو الإسلام بدلالة قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿الشورى: ٥٢ - ٥٣﴾، وفي حديث النواس بن سمعان عند أحمد قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم».

قال ابن جرير رحمته الله في تفسيره: (أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن "الصراط المستقيم"، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ إِذَا اعْوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٍ

يريد على طريق الحق، ومنه قول الهذلي أبي ذؤيب:

صَبَحْنَا أَرْضَهُمْ بِالْحَيْلِ حَتَّىٰ تَرَكْنَاهَا أَدَقَّ مِنَ الصِّرَاطِ

ومنه قول الراجز:

فَصُدَّ عَنْ نَهْجِ الصِّرَاطِ الْقَاصِدِ

والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى، وفيما ذكرنا غنى عما تركنا.

ثم تستعيرُ العرب "الصراط" فتستعمله في كل قولٍ وعملٍ وُصِفَ باستقامة أو اعوجاج، فتصفُ المستقيمَ باستقامته، والمعوجَّ باعوجاجه.

والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، أن يكونا معنيًا به: وَفَّقْنَا لِلثَّبَاتِ عَلَى مَا ارْتَضَيْتَهُ وَوَفَّقْتَ لَهُ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِكَ، مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَذَلِكَ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، لِأَنَّ مَنْ وَفَّقَ لِمَا وَفَّقَ لَهُ مِنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ، فَقَدْ وَفَّقَ لِلْإِسْلَامِ، وَتَصَدِّقِ الرَّسْلِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ، وَالْعَمَلِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَالْإِنْزِجَارِ عَمَّا زَجَرَهُ عَنْهُ، وَاتِّبَاعِ نَهْجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَنْهَاجِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَكُلِّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ، وَكُلِّ ذَلِكَ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ) اهـ.

والاستقامة على الصراط الحسي في الآخرة هي جزاء الاستقامة على الصراط المعنوي في الدنيا فمن جازه جازه، ولنذكر بعض الأدلة المتعلقة بالصراط الممدود على متن جهنم، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن ناسا قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه، كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من

كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم، سلم، وفي جهنم كالليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان؟»، قالوا: نعم يا رسول الله قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله، تحطف الناس بأعمالهم، فمنهم المؤمن بقي بعمله، ومنهم المجازى حتى ينجى، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول: لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار وقد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار وهو آخر أهل الجنة دخولا الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشني ريجها،

وأحرقني ذكاؤها، فيدعو الله ما شاء الله أن يدعوه، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، قدمني إلى باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك، ويلك يا ابن آدم، ما أغدرك فيقول: أي رب، يدعو الله حتى يقول له: فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي ربه ما شاء الله من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى له: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت؟، ويلك يا ابن آدم، ما أغدرك، فيقول: أي رب، لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك الله منه قال: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله له: تمنه، فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكره من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأمانى، قال الله تعالى: ذلك لك ومثله معه»، قال عطاء بن يزيد، وأبو سعيد الخدري، مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئاً، حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله قال لذلك الرجل: «ومثله معه»، قال أبو سعيد: «وعشرة أمثاله معه»، يا أبا هريرة، قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: «ذلك

لك ومثله معه» ، قال أبو سعيد: أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: «ذلك لك وعشرة أمثاله» ، قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة، وأخرج الشيخان عن أبي سعيد رضي الله عنه نحوه وفيه: «ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم، سلم»، قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «دحض مزلة، فيه خطايف وكلايب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فجاج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم» الحديث، وفي رواية لمسلم قال أبو سعيد: (بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف).

وفي حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم: «قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم منافقا، أو مؤمنا نورا، ثم يتبعونه وعلى جسر جهنم كلايب وحسك، تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون»، وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما عند مسلم (١٩٥): « وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا، فيمر أولكم كالبرق» قال: قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق؟ قال: « ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم ونيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا»، قال: «وفي حافتي الصراط كلايب معلقة مأمورة

بأخذ من امرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار» والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً.

وفي آخر الصراط القنطرة وهي طرفه من جهة الجنة، ففي حديث أبي سعيد رضي الله عنه في البخاري (٦٥٣٥) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»، وقد أشار الله تعالى إلى الصراط في القرآن بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ٧١﴾ [مريم: ٧١].

قال الشوكاني رحمته الله في التفسير: (وقد اختلف الناس في هذا الورود، ف قيل: الورود الدخول، ويكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم. وقالت فرقة: الورود هو المرور على الصراط وقيل: ليس الورود الدخول، إنها هو كما تقول: وردت البصرة ولم أدخلها.

وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود، وحمله على ظاهره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها، ومما يدل

على أن الورود لا يستلزم الدخول، قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص: ٢٣]، فإن المراد أشرف عليه لا أنه دخل فيه، ومنه قول زهير:

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم

ولا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط، أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعدا من عذابها، أو بحمله على المضي فوق الجسر المنصوب عليها، وهو الصراط ﴿ كَانَ عَلَى رَيْكَ حَتَمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١]؛ أي: كان ورودهم المذكور أمرا محتوما، قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة، وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ [مريم: ٧٢]؛ أي: اتقوا ما يوجب النار، وهو الكفر بالله ومعاصيه، وترك ما شرعه، وأوجب العمل به.

قرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرة ﴿ نُجِّي ﴾ بالتخفيف من أنجي، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائي، وقرأ الباقر بالتشديد، وقرأ ابن أبي ليلى ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ [المدثر: ٢١]، بفتح الثاء من ثم، والمراد بالظالمين الذين ظلموا أنفسهم

بفعل ما يوجب النار، أو ظلموا غيرهم بمظلمة في النفس أو المال أو العرض،
والجثي: جمع جاث(اهـ).

لزوم الجماعة

وليس هنالك من يسير على الصراط المستقيم إلا أهل السنة والجماعة، والجماعة هي: جماعة المسلمين وهم الصحابة والتابعون ومن صار على سيرهم إلى يوم الدين.

وسُمّوا بالجماعة لاجتماعهم على الخير والصلاح والهدى والفلاح، المتمثل في أخذ الكتاب والسنة على فهم صفوة الأمة ومن سار على سيرهم من الأمة، وقد أمر ربنا ﷺ بلزوم الجماعة ونهى عن الفرقة فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وحدث رسول الله ﷺ على الجماعة لما فيها من نصرة الدين وظهور الحق المبين ففي حديث عمر رضي الله عنه عند الآجري في "الشرعية" (٦)، و"السنة" لابن أبي عاصم (ص ٨٨)، وأحمد (١٨/١) أن النبي ﷺ قال: «من أحب منكم أن ينال بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»، وبحبوحه الجنة وسطها كما في النهاية.

وفي حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه عند الترمذي (٢٨٦٣) قال: قال النبي ﷺ: «وأنا أمركم بخمس الله أمرني بهن، السمع والطاعة والجهاد والهجرة

والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم»، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ قال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين، عباد الله».

ولما كانت الجماعة في الأهمية بمكان قال رسول الله ﷺ: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات؛ مات ميتة جاهلية»، أخرجه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وتكمن أهمية الجماعة في كونها محفوظة من الاجتماع على الخطأ بعصمة الكتاب والسنة، قال أبو مسعود رضي الله عنه: (عليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة)، أخرجه ابن أبي عاصم (٨٥)، وجاء مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الحاكم (١١٦/١).

والجماعة هي الإسلام الحق والسنة تدل على ذلك، أخرج أحمد (٣/٣٩٧)، وغيره عن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله،

وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم».

وقال عبد الله بن مسعود كما في "الشریعة" (١٦): (إن هذا الصراط محتضر، يحضره الشياطين ينادون؛ يا عبد الله هلم هذا الصراط ليصدوا عن سبيل الله تعالى، فاعتصموا بحبل الله تبارك وتعالى، فإن حبل الله عز وجل هو كتاب الله جل وعلا).

ولا معرفة للصراط الحق إلا بالعلم النافع؛ الذي هو علم الكتاب والسنة على ما قرره علماء الأمة، قال الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي: (والعلم هو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة).

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخيرة في هذا العلم، ففي الصحيحين؛ البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧)، عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين».

وأخرج الأجري (١٩): عن أبي العالية قوله: (تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الصراط يمينا ولا شمالا، وعليكم بسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم والذي عليها أصحابه، فإننا قد قرأنا القرآن من قبل أن يفعلوا الذي فعلوه خمس عشرة سنة، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء قال: فحدثت به الحسن فقال:

صدق ونصح، وحدثت به حفصة بنت سيرين، فقالت: يا بني أحدثت بهذا محمدا؟ قلت: لا، قالت: فحدثه إذن) اهـ.

فالواجب على المسلمين الاعتصام بالكتاب والسنة، ولن يتم ذلك إلا بالبعد عن الافتراق والبدعة وملازمة الاتباع، قال الله ﷻ: ﴿ أَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣]، لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة هكذا فسرها السلف.

قال الشوكاني رحمه الله: (انتصب صراط على أنه بدل من الأول، وفائدته التوكيد لما فيه من الثنية والتكرير، ويجوز أن يكون عطف بيان، وفائدته الإيضاح، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠]، وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام) اهـ.

قال ابن كثير رحمه الله: (قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [١] إلى آخرها أن الله يقول «هذا لعبدي ولعبدي ما سألت»، وقوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النحاة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم.

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٦) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠]، وقال الضحاك عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصدّيقين والشهداء والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس صراط الذين أنعمت عليهم قال: هم النبيون، وقال ابن جريج عن ابن عباس: هم المؤمنون، وكذا قال مجاهد وقال وكيع: هم المسلمون، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، والتفسير المتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أعم وأشمل والله أعلم) اهـ.

وقال رحمته الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٦) [النساء: ٦٩]؛ (أي من عمل بما أمره الله به وترك ما نهاه الله عنه ورسوله فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصدّيقون، ثم الشهداء والصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾).

وقال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن عروة، عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة»، وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعتة يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» فعلمت أنه خير، وكذا رواه مسلم من حديث شعبة عن سعد بن إبراهيم به، وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثا ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة:

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان ما لي أراك محزوناً؟» فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه، فقال: ما هو؟، قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي ﷺ شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، فبعث النبي ﷺ فبشره.

وقد روي هذا الأثر مرسلاً عن مسروق، وعن عكرمة، وعامر الشعبي وقتادة، وعن الربيع بن أنس وهو من أحسنها سندا، قال ابن جرير: حدثنا المثني، حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾

الآية، وقال: إن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقته، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً، فأنزل الله في ذلك، يعني هذه الآية، فقال: يعني رسول الله «إن الأعلين ينحدرون إلى من هو أسفل منهم، فيجتمعون في رياض فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به، فهم في روضة يجبرون ويتنعمون فيه» .

وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، فقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا فضيل بن عياض عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه في صفة الجنة من طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال، عن عبد الله بن عمران العابدي به، ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً، والله أعلم.

وقال ابن مردويه أيضا: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدثنا أبو بكر بن ثابت بن عباس المصري، حدثنا خالد بن عبد الله عن عطاء بن السائب، عن عامر الشعبي، عن ابن عباس: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحبك حتى إني لأذكرك في المنزل فيشوق ذلك علي، وأحب أن أكون معك في الدرجة، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئا، فأنزل الله ﷻ هذه الآية، وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد عن جرير عن عطاء، عن الشعبي مرسلا.

وثبت في صحيح مسلم من حديث هقل بن زياد عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي «سل»، فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن عيسى بن طلحة، عن عمرو بن مرة الجهني، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة وهكذا - ونصب أصبعيه - ما لم يعق والديه»، تفرد به أحمد.

قال الإمام أحمد أيضا: حدثنا أبو سعيد مولى أبي هاشم، حدثنا ابن لهيعة عن زيان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، وحسن أولئك رفيقا إن شاء الله» .

وروى الترمذي من طريق سفیان الثوري، عن أبي حمزة، عن الحسن البصري، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» ثم قال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو حمزة اسمه عبد الله بن جابر شيخ بصري.

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «المرء مع من أحب»، قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث، وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن الله يبعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم.

قال الإمام مالك بن أنس، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها

غيرهم، قال «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»،
أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم.

ورواه الإمام أحمد، حدثنا فزارة، أخبرني فليح عن هلال يعني ابن علي،
عن عطاء، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في
الجنة كما تراءون- أو ترون- الكوكب الدري الغابر في الأفق الطالع في تفاضل
الدرجات»، قالوا: يا رسول الله أولئك النبيون؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده،
رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» قال الحافظ الضياء المقدسي: هذا الحديث
على شرط البخاري، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا علي بن عبد
العزیز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عفيف بن سالم عن أيوب، عن
عتبة، عن عطاء عن ابن عمر، قال: أتى رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ
يسأله فقال له رسول الله ﷺ: «سل واستفهم» فقال: يا رسول الله فضلتهم علينا
بالصور والألوان والنبوة، ثم قال: أفرايت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما
عملت به، إني لكائن معك في الجنة، قال رسول الله ﷺ: «نعم، والذي نفسي
بيده، إنه ليضيء بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام»، ثم قال رسول الله
ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله
وبحمده، كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة»، فقال
رجل: كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليأتي

يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله، فتكاد أن تستنفذ ذلك كله إلا أن يتغمده الله برحمته»، ونزلت هذه الآيات ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ١ ﴾ - إلى قوله - ﴿ نِعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ١-٢٠]، فقال الحبشي: وإن عيني لريان ما ترى عينك في الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فاستبكى حتى فاضت نفسه، قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يدلّيه في حفرته بيديه، فيه غرابة ونكارة وسنده ضعيف.

ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾؛ أي من عند الله برحمته، وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق) اهـ.

وقال الشنقيطي رحمه الله في "أضواء البيان" بعد أن ذكر الذين أنعم الله عليهم: (تنبيهان:

الأول: يؤخذ من هذه الآية الكريمة صحة إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأنه داخل فيمن أمرنا الله في السبع المثاني والقرآن العظيم - أعني الفاتحة - بأن نسأله أن يهدينا صراطهم، فدل ذلك على أن صراطهم هو الصراط المستقيم.

وذلك في قوله: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧ ﴾، وقد بين الذين أنعم عليهم، فعد منهم

الصديقين، وقد بين صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر رضي الله عنه من الصديقين، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم الله عليهم، الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى صراطهم، فلم يبق لبس في أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه على الصراط المستقيم، وأن إمامته حق.

الثاني: قد علمت أن الصديقين من الذين أنعم الله عليهم، وقد صرح تعالى بأن مريم ابنة عمران صديقة في قوله: ﴿وَأُمَّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، وإذن فهل تدخل مريم في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أو لا؟

الجواب: أن دخولها فيهم يتفرع على قاعدة أصولية مختلف فيها معروفة، وهي: هل ما في القرآن العظيم والسنة من الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور تدخل فيه الإناث أو لا يدخلن فيه إلا بدليل منفصل؟

فذهب قوم إلى أنهن يدخلن في ذلك، وعليه: فمريم داخله في الآية، واحتج أهل هذا القول بأميرين:

الأول: إجماع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجمع.

والثاني: ورود آيات تدل على دخولهن في الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها، كقوله تعالى في مريم نفسها: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِن فَحْشَىٰ مَا فَحَسَ مِنَ الْأُنثَىٰ﴾ [التحریم: ١٢]، وقوله في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا

وَأَسْتَغْفِرِي لَذُنُوبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ [يوسف: ٢٩]، وقوله في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٣]، وقوله فيما كاجمع المذكر السالم: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية [البقرة: ٣٨]؛ فإنه تدخل فيه حواء إجماعاً.

وذهب كثير إلى أنهم لا يدخلن في ذلك إلا بدليل منفصل. واستدلوا على ذلك بآيات كقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور: ٣١]، فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن.

وأجابوا عن حجة أهل القول الأول بأن تغليب الذكور على الإناث في الجمع ليس محل نزاع، وإنما النزاع في الذي يتبادر من الجمع المذكر ونحوه عند الإطلاق، وعن الآيات بأن دخول الإناث فيها إنما علم من قرينة السياق ودلالة اللفظ، ودخولهن في حالة الاقتران بما يدل على ذلك لا نزاع فيه.

وعلى هذا القول: فمریم غير داخلة في الآية وإلى هذا الخلاف أشار في «مراحي السعود» بقوله:

وما شمول من للأثنى جنف وفي شبهه المسلمين اختلفوا) اهـ.

فهذه الآية دالة على وجوب سؤال الله ﷻ الهداية التامة التي لا تكون إلا بالعلم والعمل، وفي هذا من الترغيب في طلب العلم ما يكون حافزا لأهل الحق في التزود منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فإن الله ﷻ أرسل رسله بالعلم والعمل، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، ففي هذه الآية وجوب الأخذ بالدليل والبعد عن التقليد، لأن المنعم عليهم هم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان لا أصحاب التقليد والحدس والظن والرأي الفاسد، وفيها أن الحق واحد؛ وهو الطريق الوسط العدل الخيار الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولا شك أن الحق هدى بين ضلالين ونور بين ظلامين وحق بين باطلين.

وفيه فضل الصحابة رضي الله عنهم على غيرهم، فهم ذروة المنعم عليهم؛ صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجروا وصلوا معه فرضي الله عنهم ورضوا عنه كما ذكر الله تعالى في آيات عدة من كتابه، وفيما صح عن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد فرأى قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير

قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا، فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ «.

وفيه أن لا سبيل لسلك هذا الطريق إلا بعون الله ﷻ وتوفيقه للعبد؛ إذ العبد بحاجة إلى هذه الهداية أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب بل والنفس، فإنه يفقد هذه النعمة العظيمة يقع عليه العطب الدنيوي والأخروي والخسران المبين.

وفيه أن العلم المأمور به هنا هو علم الكتاب والسنة على فهم سلف رضوان الله عليهم، لا علم الكلام ولا الرأي، وذلك لأن الهدى في علم السلف على ما بينه العلماء، ومن ذلك رسالة ابن رجب "فضل علم السلف على الخلف".

وفيه أهمية التوحيد ومتابعة رسول الله ﷺ إذ هو أعظم ما يهدي إليه، قال الله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أُقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [٨٢] [الأنعام: ٨٢]، فلا هتداء التام لأهل التوحيد والمتابعة لرسول الله ﷺ.

وفيه دليل على فقر الإنسان وحاجته إلى الله ﷻ، فإن السؤال والطلب دال على ذلك، قال الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وفيه دليل على وجوب التوكل والاعتماد على الله ﷻ؛ إذ القلوب بين أصبعين من أصابعه يصرفها تعالى كيف يشاء، كما صحت بذلك الأحاديث.

وفيه التحذير من البدع؛ إذ هي مخالفة للصراط، فكل ما خالف الكتاب والسنة قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً فليس من الهدى في شيء، بل هو من الضلال، قال رسول الله ﷺ: «فإن، كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»، وقال الله تعالى:

﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، ففيه التحذير من البدع كما تقدم، وفيه رد على أصحاب دعاة التقريب سواء التقريب بين الأديان أو التقريب بين السنة والشيعه أو التقريب بين الجماعات الإسلامية فالصراط واحد ولا يجوز مخالفته ولا التنازل عنه بحال قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقد قال الله ﷻ عن حال المبطلين: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، فلا يجوز للمسلم أن يتنازل عن شيء من دينه إلى غير ذلك من الفوائد التي تدل على بركة كتاب الله ﷻ، وقد قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وفيه أن الإنعام على هذه الطائفة إنما حصل لهم بسلوك الصراط المستقيم جزاء من ربك عطاء حساباً، فلا بد من العمل قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[السجدة: ١٧]، ففيه رد على المرجئة الذين يخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان، إذ الإيمان عند أهل السنة قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وفي هذا بيان لمنهج أهل السنة الحق؛ الطائفة المنصورة التي أثنى عليها رسول الله بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»، فكان ظهورهم وحفظهم بأخذهم بالصراط المستقيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، والله أعلم.

قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

ثبت تفسير ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باليهود، و﴿الضَّالِّينَ﴾ بالنصارى، عن رسول الله ﷺ من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون»، أخرجه أحمد وغيره وفيه كلام، وعن عبد الله بن شقيق عن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي القرى وسأله رجل - من بني القين-: مَنِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «اليهود»، قال فمن الضالون؟ قال: «النصارى»، أخرجه أحمد.

فالمغضوب عليهم اليهود ومن شابههم ممن عرف الحق وترك العمل به، والضالون النصارى الذين عملوا بغير علم ومن شابههم فضلوا وأضلوا. وفي الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الصدور ولكن يقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبق علما، اتخذ الناس رءوسا جهالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»، وفي رواية البخاري: «فأفتوا برأيهم فضلوا وأضلوا»، أخرجاه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ولهذا قال سفيان بن عيينة رحمته الله: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى)، وكلا الفريقين مغضوب عليهم وضال، سواء اليهود أو النصارى. قال الشوكاني في تفسيره: (وغير المغضوب عليهم بدل من الذين أنعمت عليهم، على معنى: أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضللال،

أو صفة له على معنى: أنهم جمعوا بين النعمتين نعمة الإيمان والسلامة من ذلك، وصح جعله صفة للمعرفة مع كون (غير) لا تتعرف بالإضافة إلى المعارف لما فيها من الإبهام، لأنها هنا غير مبهمة لاشتغال المغيرة بين الجنسين.

والغضب في اللغة، قال القرطبي: الشدة، ورجل غضوب: أي شديد الخلق، والغضوب: الحية الخبيثة لشدتها.

و (لا) في قوله ولا الضالين تأكيد النفي المفهوم من (غير).

والضلال في لسان العرب، قال القرطبي: هو الذهاب عن سنن القصد

وطريق الحق، ومنه ضل اللبن في الماء: أي غاب، ومنه ﴿أَيُّدَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾

[السجدة: ١٠]؛ أي غبنا بالموت وصرنا تراباً) اهـ بتصرف.

قال ابن كثير **رحمته الله**: (وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، يعنى اهدنا الصراط

المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعمتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسوله، وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجه،

غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق

وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في

الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين

فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن (غير) هاهنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعا

لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى، لقول الشاعر:

كأنك من جمال بني أقيش يقعق عند رجله بشن

أي: كأنك جمل من جمال بني أقيش، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة، وهكذا، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: غير صراط المغضوب عليهم.

اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

ومنهم من زعم أن (لا) في قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، واستشهد بيت العجاج:

في بئر لا حور سرى وما شعر

أي في بئر حور، والصحيح ما قدمناه.

ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كان يقرأ: (غير المغضوب عليهم وغير الضالين)، وهذا إسناد صحيح، وكذا حكى عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه؛ من أنه إنما جيء بها لتأكيد النفي، لئلا يتوهم أنه معطوف على ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وللفرق بين الطريقتين، لتجنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود

فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم.

والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار، وذلك واضح بين.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت سهاك بن حرب، يقول: سمعت عباد بن حبيش، يحدث عن عدي بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمتي وناسا، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صنفوا له، فقالت: يا رسول الله، ناء الوافد وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فمن علي من الله عليك، قال: «من وافدك؟»، قالت: عدي بن حاتم، قال: «الذي فر من الله ورسوله!»، قالت: فمن علي، فلما رجع، ورجل إلى جنبه، ترى أنه علي، قال: سليه حملانا، فسألته، فأمر لها، قال: فأتتني فقالت: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي، وذكر قريهم من النبي ﷺ، قال: فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال: «يا

عدي، ما أفرك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟»، قال: «ما أفرك أن يقال: الله أكبر، فهل شيء أكبر من الله، صلى الله عليه وسلم؟»، قال: «فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر»، وقال: «المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى»، وذكر الحديث، ورواه الترمذي، من حديث سماك بن حرب، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه، قلت: وقد رواه حماد بن سلمة، عن سماك، عن مري بن قطري، عن عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله: ﴿عَبْرَ الْمُغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، قال: «هم اليهود» ﴿وَالضَّالِّينَ﴾، قال: «النصارى هم الضالون»، وهكذا رواه سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم به، وقد روي حديث عدي هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بديل العقيلي، أخبرني عبد الله بن شقيق، أنه أخبره من سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى، وهو على فرسه، وسأله رجل من بني القين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «المغضوب عليهم -وأشار إلى اليهود- والضالون هم النصارى»، وقد رواه الجريري وعروة، وخالد الحذاء، عن عبد الله بن شقيق، فأرسلوه، ولم يذكروا من سمع النبي صلى الله عليه وسلم، ووقع في رواية عروة تسمية عبد الله بن عمر، فالله أعلم.

وقد روى ابن مردويه، من حديث إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال: «اليهود»، قال: قلت: الضالين، قال: «النصارى».

وقال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هم النصارى.

وقال الضحاك، وابن جريج، عن ابن عباس: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هم النصارى.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافا.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى

ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة

البقرة: ﴿يَسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ

مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ

مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال في المائدة ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ

مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ

عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أفر. وقالت له النصراني: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال: لا أستطيعه، فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصراني، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل، حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بها وجد من الوحي، **صلى الله عليه وسلم** (هـ).

وقال شيخ الإسلام في "اقتضاء الصراط المستقيم": (فعلم بخبره الصدق أنه في أمته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضاً، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصراني، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضاً، بل قد يكون الانحراف كفراً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون معصية وقد يكون خطأ).

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلاً.

وأنا أشير إلى بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم، التي ابتليت بها هذه الأمة، ليجنب المسلم الحنيف الانحراف عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم، أو الضالين.

قال الله سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فدم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم. وقد يتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله بعلم نافع أو عمل صالح، وهو خلق مذموم مطلقاً، وهو في هذا الموضوع من أخلاق المغضوب عليهم. وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٦ - ٣٧]، فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم والبخل بالمال، وإن كان السياق يدل على أن البخل بالعلم هو المقصود الأكبر، وكذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ

اللَّهُ مِثْقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتَبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٨٧]
 الآية، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
 لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [البقرة:
 ١٥٩ - ١٦٠] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ
 وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤]
 الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُدِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ
 قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾
 [البقرة: ٧٦].

فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم: تارة بخلا به، وتارة
 اعتياضا عن إظهاره بالدنيا، وتارة خوفا في أن يُحتج عليهم بما أظهره منه.
 وهذا قد يبتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم فإنهم تارة يكتمون
 العلم بخلا به، وكراهة لأن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضا عنه
 برئاسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته أو نقص ماله، وتارة يكون
 قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة، فيكتُم من
 العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل.
 ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: أهل العلم يكتبون ما لهم وما
 عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم.

وليس الغرض تفصيل ما يجب أو يحتسب في ذلك بل الغرض التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله به.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] بعد أن قال: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فوصف اليهود: بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور الناطق به، والداعي إليه، فلما جاءهم الناطق به من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له، وأنهم لا يقبلون الحق إلا من الطائفة التي هم منتسبون إليها، مع أنهم لا يتبعون ما لزمهم في اعتقادهم.

وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة في العلم، أو الدين، من المتفهمة، أو المتصوفة أو غيرهم، أو إلى رئيس معظم عندهم في الدين - غير النبي ﷺ - فإنهم لا يقبلون من الدين رأياً ورواية إلا ما جاءت به طائفتهم، ثم إنهم لا يعلمون ما توجه طائفتهم، مع أن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقاً: رواية ورأياً من غير تعيين شخص أو طائفة - غير الرسول ﷺ -.

وقال تعالى في صفة المغضوب عليهم: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ

عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

ووصفهم بأنهم ﴿يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، والتحريف قد فسر بتحريف التنزيل،
وبتحريف التأويل.

فأما تحريف التأويل فكثير جدا، وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمة،
وأما تحريف التنزيل فقد وقع في كثير من الناس، يحرفون ألفاظ الرسول،
ويروون الحديث بروايات منكرة.

وإن كان الجهابذة يدفعون ذلك، وربما يطاول بعضهم إلى تحريف التنزيل، وإن
لم يمكنه ذلك، كما قرأ بعضهم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وأما لِي الألسنة بما يُظن أنه من عند الله فكوضع الموضوعين الأحاديث
على رسول الله ﷺ، أو إقامة ما يظن أنه حجة في الدين، وليس بحجة، وهذا
الضرب من أنواع أخلاق اليهود، وذمها كثير لمن تدبره في كتاب الله وسنة
رسوله، ثم نظر بنور الإيمان إلى ما وقع في الأمة من الأحداث .

وقال سبحانه عن النصارى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَعْلَمُوا فِي
دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ
وَكَالِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ
كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، إلى غير
ذلك من المواضع.

ثم إن الغلو في الأنبياء والصالحين قد وقع في طوائف من ضلال المتعبدة والمتصوفة حتى خالط كثيرا منهم من مذهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول النصارى أو مثله أو دونه.

وقال تعالى: ﴿ اَتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَزْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وفسره النبي ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه بأنهم: «أحلّوا الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم».

وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظمين عنده في كل ما يأمر به وإن تضمن تحليل حرام أو تحريم حلال، وقال سبحانه عن الضالين: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقد ابتلي طوائف من المسلمين من الرهبانية المبتدعة بما الله به عليهم.

وقال الله سبحانه: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١]، فكان الضالون - بل والمغضوب عليهم - يبنون المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وقد نهى رسول الله ﷺ أمته عن ذلك في غير موطن حتى في وقت مفارقتة الدنيا - بأبي هو وأمي -.

ثم إن هذا قد ابتلي به كثير من هذه الأمة.

ثم إن الضالين تجد عامة دينهم إنما يقوم بالأصوات المطربة، والصور الجميلة، فلا يهتمون بأمر دينهم بأكثر من تلحين الأصوات، ثم تجد قد ابتليت هذه الأمة من اتخاذ السماع المطرب، بسماع القصائد وإصلاح القلوب

والأحوال به ما فيه مضاهاة لبعض حال الضالين، وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [البقرة: ١١٣]، فأخبر أن كل واحدة من الأمتين تجحد كل ما الأخرى عليه.

وأنت تجد كثيرا من المتفهمة، إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئا ولا يعدهم إلا جهالا ضلالا، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئا، وترى كثيرا من المتصوفة، والمتفكرة لا يرى الشريعة والعلم شيئا، بل يرى أن المتمسك بها منقطعاً عن الله وأنه ليس عند أهلها مما ينفع عند الله شيئا .

وإنما الصواب أن ما جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا حق، وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا: باطل.

وأما مشابهة فارس والروم، فقد دخل في هذه الأمة من الآثار الرومية، قولاً وعملاً، والآثار الفارسية، قولاً وعملاً، ما لا خفاء به على مؤمن عليم بدين الإسلام، وبما حدث فيه، وليس الغرض هنا تفصيل الأمور التي وقعت في الأمة، مما تضارع طريق المغضوب عليهم أو الضالين، وإن كان بعض ذلك قد يقع مغفورا لصاحبه: إما لاجتهاد أخطأ فيه، وإما لحسنات محت السيئات، أو غير ذلك، وإنما الغرض أن نبين ضرورة العبد وفاقته إلى هداية الصراط المستقيم، وأن يفتح باب إلى معرفة الانحراف) اهـ.

فنسأل الله ﷻ الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

إثبات صفة الغضب لله ﷻ

وفي هذه الآية وما في بابها إثبات غضب الله ﷻ وهو من الصفات الفعلية-غضب يليق بجلاله- وأدلته كثيرة في الكتاب والسنة منها ما تقدم من الآيات وزد على ذلك: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعْظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [النساء: ٩٣]، ومنه قوله: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، والأسف هو شدة الغضب، والأدلة من السنة كثيرة منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهس منها نهسة فقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: اتوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى

نوح، فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى صلى الله عليه وسلم، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله فضلك الله برسالاته، وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى صلى الله عليه وسلم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى صلى الله عليه وسلم، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمت الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى صلى الله عليه وسلم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنبا، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر،

اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق، فأتى تحت العرش، فأقع ساجدا لربي، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: يا محمد، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى» متفق عليه.

وينكر اتصاف الله ﷻ بهذه الصفة؛ بل وبجميع الصفات الاختيارية الأشاعرة وأشد منهم المعتزلة والجهمية مع توارد الأدلة بأن الله ﷻ: ﴿فَعَالٌ لِّمَآ يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وأنه يحب ويرضى ويسخط ويكره ويغضب إلى غير ذلك، وكل ذلك على ما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وهو سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

قال الطحاوي رحمه الله: (والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى).

قال ابن أبي العز: (فصل: ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب، والرضى، والعداوة، والولاية، والحب، والبغض، ونحو ذلك من الصفات، التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى. كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام

وسائر الصفات، كما أشار إليه الشيخ فيما تقدم بقوله: "إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية - بترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين".

وانظر إلى جواب الإمام مالك رضي الله عنه في صفة الاستواء: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول"، وروي أيضا عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا عليها، ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك قال الشيخ رحمته الله فيما تقدم: "من لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه"، ويأتي في كلامه: "أن الإسلام بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل".

فقول الشيخ رحمته الله: "لا كأحد من الورى" - نفي التشبيه، ولا يقال: إن الرضى إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام - فإن هذا نفي للصفة؛ وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه، وإن كان لا يريد ولا يشاؤه، وينهى عما يسخطه ويكرهه، ويبغضه ويغضب على فاعله، وإن كان قد شاءه وأراده، فقد يجب عندهم ويرضى ما لا يريد، ويكره ويسخط ويغضب لما أراده.

ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان: لم تأولت ذلك؟ فلا بد أن يقول: لأن الغضب غليان دم القلب، والرضا الميل والشهوة، وذلك لا

يليق بالله تعالى! فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب، لا أنه الغضب .

ويقال له أيضا: وكذلك الإرادة والمشية فينا، هي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه، ويزداد بوجوده، وينقص بعدمه، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء، فإن جاز هذا جاز ذلك، وإن امتنع هذا امتنع ذلك.

فإن قالوا: الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد، وإن كان كل منهما حقيقة؟ قيل له: فقل: إن الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد، وإن كان كل منهما حقيقة، فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات، لم يتعين التأويل، بل يجب تركه؛ لأنك تسلم من التناقض، وتسلم أيضا من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب، فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام، ولا يكون الموجب للمصرف ما دل عليه عقله، إذ العقول مختلفة، فكل يقول إن عقله دل على خلاف ما يقوله الآخر!

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى، لامتناع مسمى ذلك في المخلوق، فإنه لا بد أن يثبت شيئا لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود، فإن وجود العبد كما يليق به، ووجود الباري تعالى كما

يليق به، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم، وما سمي به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته، مثل الحي والعليم والقدير، أو سمي به بعض صفاته، كالغضب والرضى، وسمى به بعض صفات عباده - فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى، وأنه حق ثابت موجود، ونعقل أن بين المعنيين قدرا مشتركا، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركا، إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركا إلا في الأذهان، ولا يوجد في الخارج إلا معينا مختصا. فيثبت في كل منهما كما يليق به. بل لو قيل: غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة - لم يجب أن يكون مماثلا لكيفية غضب آدميين، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة، حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه، فغضب الله أولى.

وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه، من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك، وقالوا: إنها هي أمور مخلوقة منفصلة عنه، ليس هو في نفسه متصفا بشيء من ذلك!!

وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه، فقالوا: لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلا، وجميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته، قديمة أزلية، فلا يرضى في وقت دون وقت، ولا يغضب في وقت دون وقت.

كما قال في حديث الشفاعة: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله» .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا» .

فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط، كما يحل السخط ثم يرضى، لكن هؤلاء أحل عليهم رضوانا لا يتعقبه سخط)اهـ.

قال ابن القيم في "بدائع الفوائد" (٢/٢٩-٣٢): (ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى مع تلازم وصفني الغضب والضلال، فالجواب أن يقال هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفها، وأحقها به وأصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليهما، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن، والنصارى بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك

الموضع، أما اليهود فقال تعالى في حقهم: ﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرار كفرهم برسول الله ﷺ والبغي عليه ومحاربتة، فاستحقوا بكفرهم غضبا، وبالبغي والصد عنه غضبا آخر ونظيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، فالعذاب الأول بكفرهم والعذاب الذي زادهم إياه بصددهم الناس عن سبيله.

القول الثاني: أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء، والغضب الثاني بكفرهم بالمسيح.

القول الثالث: أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح والغضب الثاني بكفرهم بمحمد ﷺ، والصحيح في الآية أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التي تشفع الواحد؛ بل المراد غضب بعد غضب بحسب تكرار كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء وكفرهم بالمسيح وبمحمد ﷺ ومعاداتهم لرسول الله إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضبا على حدته وهذا كما في قوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [٣] ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنًا﴾ [الملك: ٣ - ٤]؛ أي

كرة بعد كرة لا مرتين فقط، وقصد التعدد في قوله: ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة: ٩٠]، أظهر ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضبا، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضبا آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضبا آخر، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضبا وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضبا ومحاربتهم له، وأذاهم لأتباعه يقتضي غضبا وصداهم من أراد الدخول في دينه عنه؛ يقتضي غضبا، فهم الأمة الغضبية أعادنا الله من غضبه فهي الأمة التي باءت بغضب الله المضاعف المتكرر وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى وقال تعالى في شأنهم: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ [المائدة: ٦٠]، فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ وهو أشد ما يكون من الغضب وقال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٩) ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) ﴿

[المائدة: ٧٨ - ٨٠]، وأما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ

ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ [المائدة: ٧٧]،
 فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ
 الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ
 رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٧]،
 فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولا ثم أضلوا كثيرا وهم أتباعهم فهذا قبل مبعث
 النبي محمد ﷺ حيث ضلوا في أمر المسيح وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي
 ازدادوا ضلالا آخر بتكذيبهم له وكفرهم به، فتضاعف الضلال في حقهم
 هذا قول طائفة منهم الزمخشري وغيره، وهو ضعيف فإن هذا كله وصف
 لأسلافهم الذين هم لهم تبع فوصفهم بثلاث صفات:

إحداها: أنهم قد ضلوا من قبلهم.

والثانية: أضلوا أتباعهم.

والثالثة: أنهم ضلوا عن سواء السبيل.

فهذه صفات لأسلافهم الذين نهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم، فلا يصح
 أن يكون وصفا للموجودين في زمن النبي ﷺ، لأنهم هم المنهون أنفسهم لا
 المنهي عنهم فتأمله، وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى
 ضلالا بعد ضلال لفرط جهلهم بالحق وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار
 الغضب في حق اليهود ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود، ووجه

تكرار هذا الضلال أن الضلال قد أخطأ نفس مقصوده؛ فيكون ضالا فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده ويعبد من لا ينبغي أن يعبد، وقد يصيب مقصودا حقا لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه، فالأول ضلال في الغاية، والثاني ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله، وأسلاف النصرى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة فضلوا عن مقصودهم حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قتل وصلب وشفع، فهذا ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به وضلوا عن السبيل الموصلة إليه فلا اهدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه ودعوا أتباعهم إلى ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيرا فكانوا أدخلوا في الضلال من اليهود فوصفوا بأخص الوصفين والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة فخافوا أن يذهب بالإسلام فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق فإنهم كانوا يعرفون أن محمدا رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعههم إلا بإرادتهم الفاسدة من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء ووبخ النصرى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غير عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالا محضا وكفر النصرى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه فإذا تبين لهم

وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوبا عليهم ضالين ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نياله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفا وبيانا وإرشادا وإلهاما وتوفيقا وإعانة فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريدا له قاصدا لاتباعه فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال كان السلف يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى وهذا كما قالوا فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم إلى غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود من الكفر والي والكتمان والتحريف والتحيل على المحارم وتلبيس الحق بالباطل فهذا شبهه باليهود ظاهر وأما من فسد من العباد فعبد الله بمقتضى هواه لا بما بعث به رسوله ﷺ وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا

أوجب منه عليه وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس لأن غاية ما يقدر بفوتها موته وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين إنه قريب مجيب) اهـ.

بعض أسباب الضلال

ونذكر هنا بعض أسباب الضلال والانحراف ومن أعظمها اتباع سنن اليهود والنصارى، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: «فمن»، رواه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

قال النووي رحمته الله: (السَّنَن بفتح السين والنون، وهو الطريق، والمراد بالشبر والذراع وحجر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر) اهـ.

وفي صحيح البخاري (٧٣١٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبرا بشبر، وذراعا بذراع» فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال: «ومن الناس إلا أولئك».

قال محمد بن الحسن الأجري رحمته الله في "الشریعة" بعد رقم (٣٥): (من تصفح أمر هذه الأمة من عالم عاقل، علم أن أكثرهم والعام منهم تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن الجاهلية، وذلك مثل السلطنة وأحكامهم في العمال والأمراء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمسكن واللباس والحلية، والأكل والشرب والولائم، والمراكب والخدام والمجالس والمجالسة، والبيع

والشراء، والمكاسب من جهات كثيرة، وأشباه لما ذكرت يطول شرحها تجري بينهم على خلاف السنة والكتاب، وإنما تجري بينهم على سنن من قبلنا، كما قال النبي ﷺ، والله المستعان، ما أقل من يتخلص من البلاء الذي قد عم الناس، ولن يميز هذا إلا عاقل عالم قد أدبه العلم) اهـ.

أقول هذا في زمنه ﷺ تعالى فكيف لو رأى حال الناس في هذه الأعصار وفي كثير من الأمصار؛ وقد تسلط الكفار وقويت شوكتهم وقلدهم الناس في الملابس والمأكل والمشرب وأمور الدُول في الجيوش والألعاب، والله المستعان من غربة الزمان، ومع ذلك لن يزال هذا الدين عزيزا منيعا يحفظه الله ﷻ إنجازا لوعده بالطائفة المنصورة والفرقة الناجية.

ومن أسباب الوقوع في الضلال أيضا اتباع المتشابه من الأدلة لغرض رد الكتاب والسنة بدعوى التعارض وقد حذرنا رسول الله ﷺ من هذا الصنف كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»، رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

وقد ضل المبتدعة في باب الأسماء والصفات وباب الإيمان باليوم الآخر من هذا الباب حيث زعموا أن أدلته من باب المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، والصحيح من الأقوال أن آيات وأحاديث الصفات من باب المحكم البين الواضح.

ومن أسباب الضلال والانحراف عن طريق أهل الحق وعن سبيل السلف؛ الجدل بالباطل، قال الله ﷻ: ﴿ مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [غافر: ٤]، وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا رسول الله هذه الآية عليه وسلم ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨]، أخرجه الترمذي (٣٢٥٣).

ويدخل في هذا الاختلاف في الكتاب والتخاصم بالباطل، ففي مسلم (٢٦٦٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: هجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنها هلك من كان قبلكم، باختلافهم في الكتاب».

قال النووي رحمته الله: (المراد بهلاك من قبلنا هنا هلاكهم في الدين بكفرهم وابتداعهم، فحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مثل فعلهم) اهـ.

ومنها الغلو في الدين فإنه سبب للهلاك والانحراف عن طريق السلف وطريق الاستقامة إلى طريق الخلف، ففي مسلم (٢٦٧٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلك المنتطعون» قالها ثلاثاً.

قال النووي رحمته الله: (قوله صلى الله عليه وسلم هلك المنتطعون، أي المتعمقون الغالون المتجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم) اهـ.

والأدلة في النهي عن الغلو كثيرة؛ لما فيه من الهلكة على صاحبه لانقطاعه بعد ذلك، وعلى غيره لأنه سبب لتفجيرهم وصددهم عن الخير والغلو يكون بالتفريط والإفراط، قال الله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، وأهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى وكلهم غلا في عيسى عليه السلام، فالنصارى أهوه واليهود اتهموه أنه ولد زنا والله المستعان.

ومن أسباب الهلكة الفتور عن السنة والطريقة السلفية، ففي حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي، فقد أفلح، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك»، رواه الترمذي (٢٤٥٣)، وأحمد (٢/٢١٠) واللفظ له.

ومن أسبابها علماء السوء وأصحاب الرأي والأقيسة الفاسدة، ففي البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يقبض هذا العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»، وفي رواية للبخاري (٧٣٠٧): «يفتون برأيهم».

فيجب علينا لزوم السنة، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، والأسوة القدوة، والأسوة ما يتأسى به، أي: يتعزى به فيقتدي به في جميع أفعاله، ويتعزى به في جميع أحواله.

واختلف في هذه الأسوة بالرسول ﷺ هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؟ على قولين:

أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب.

والثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب.

ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا، أفاده القرطبي.

والحق أن أمر النبي ﷺ يدل على الوجوب حتى يصرفه صارف إلى الاستحباب وغيره، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نهيتكم عنه، فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم» أخرجاه في الصحيحين، البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) واللفظ له.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم

(١٧١٨) قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد»، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد».

قال النووي رحمته الله: (الرّد هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير معتدّ به.

وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في ردّ كل البدع والمخترعات.

وفي الرواية الثانية زيادة وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها، فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول أنا ما أحدثت شيئاً، فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات، سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها، وفي الحديث دليل لمن يقول من الأصوليين أن النهي يقتضي الفساد، ومن قال لا يقتضي الفساد قال هذا خبر واحد ولا يكفي في إثبات هذه القاعدة المهمة، وهذا جواب فاسد.

وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به) اهـ.

ومن هذه الآية علمنا انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام:

قسم أهل هدى: وهم الذين أنعم الله عليهم فأعانهم ووفقهم وسددهم لكل خير ورضي فعلهم ودافع عنهم وحارب من حاربهم وهم أهل الإسلام عامة وأهل السنة خاصة، ولو تأملنا سبب إنعام الله ﷻ على هؤلاء بالهداية وتجنبيهم طريق الغواية لوجدنا ذلك يتلخص في أمرين قد أشير إليهما قبل وهما: العلم والعمل.

فالعلم أجل نعمة في الإسلام، إذ به يعرف التوحيد من الشرك والسنة من البدعة والطاعة من المعصية، وهو المفتاح الذي يفتح به باب الإسلام

العظيم، وقد علمنا أن أول ما أنزل الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ خمس آيات من أول سورة العلق حثه فيها على العلم، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ - ٥]، وامتن الله على نبيه به فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣﴾ [النساء: ١١٣]، وأمره بالاستزادة منه، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه: ١١٤]، وأخبر تعالى أن أهل خشيته حقا وعبادته صدقا هم أهل العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأخبر أنه سبب الرفعة في الدارين: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، والمهم أن أصحابه لهم المنزلة الرفيعة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٩﴾ [الزمر: ٩]، وكفى به أنه علامة إرادة الله ﷻ الخير للعبد، قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» أخرجاه عن معاوية رضي الله عنه.

وقد ذم الله ﷻ في كتابه من لا يعمل بعلمه، وضرب له أسوأ الأمثال، حيث شبهه بالكلب والحمار، قال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝١٧٥﴾ [سورة الحجر: ١٧٥] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَشَهِدْهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ

يَلَهَتْ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلَهَتْ ﴿[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ
 حُمِلُوا النُّورَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ [الجمعة: ٥]، وفي حديث أنس رضي الله عنه
 قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على أناس، تقرض مشافرههم
 بمقاريض من نار، فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟»، قال: هؤلاء خطباء من
 أمتك»، أخرجهم أبو يعلى، وما كان الله ﻋﻠﻴﻚ ليعذب من يدل على الخير إلا
 لتقصيره ومخالفة القول بالعمل.

قال الخطيب البغدادي في "اقتضاء العلم العمل" (١٥٨): (ثم إنني
 موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهاد النفس على العمل
 بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعد عالما من لم يكن بعلمه
 عاملا، وقيل: العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل، والرواية مع
 الدراية فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما
 كنت مقصرا في العمل ولكن اجمع بينهما، وإن قل نصيبك منهما) اهـ.

فإن العالم والداعي إلى الله ﻋﻠﻴﻚ إذا عمل بعلمه كان عمله ذلك دعوة في
 حد ذاته، ومحبا الداعي إلى الناس، بينما إذا كان الداعي من المقصرين في هذا
 الجانب فسيكون حال المدعو لو كان خيرا لسبقونا إليه، وكم من جاهل أتبع
 بسبب عبادته في جهله.

وقال الخطيب: (وما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد
طريقته، وجاهل أخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته) اهـ.

ولا وصل إلى الله ﷻ على طريقة مرضية إلا بالعمل بالعلم، يدل على
ذلك حديث أسامة بن زيد عند الشيخين قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى
بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أفتاب بطنه، فيدور بها كما يدور
الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر
بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت أمر بالمعروف ولا آتية،
وأنهى عن المنكر وآتية».

قال ابن القيم في "طريق المهجرتين" (١٨٣): (قاعدة: السائر إلى الله
تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى
مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل
الطريق، ومواضع السلوك فيقصد سائرا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك
ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوته العلمية
كنور عظيم بيده يمشى به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر
بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من
الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضا أعلام الطريق وأدلتها
المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق،

ومعطيها، وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر) اهـ.

ولا فلاح ولا نجاح لأي إنسان عالما أو داعيا إلا بالإيمان والعمل الصالح، والإيمان كما تقدم يكون بالعلم النافع، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرَ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ [العصر: ١-٣].

قال ابن القيم في "المدارج" (٦/١): (أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتيان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما) اهـ.

وقد أخبر الله ﷻ؛ بل وأقسم أن الفلاح يقع لمن زكى نفسه، والتزكية إنما تكون بالعلم والعمل، فإذا فعل ذلك أفلح دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا ۝٢ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس: ١-٩].

قال الخطيب البغدادي رحمه الله في "اقتضاء العلم العمل" (١٥٩): (وكما لا تنفع الأموال إلا بإنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها، وراعى

واجباتها فلينظر امرؤ لنفسه، وليغتتم وقته، فإن الثواء قليل والرحيل قريب، والطريق مخوف، والاعتزاز غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير، والله تعالى بالمرصاد، وإليه المرجع والمعاد ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] اهـ.

ولو لم يكن من مساوي عدم العمل بالعلم إلا أنه شبه صاحبه باليهود، كما قال سفيان: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى.

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/ ١١): (ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به، ومن هنا كان اليهود أحق به، وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعالى في حقهم ﴿ بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ فَبَاءَ وَ يَغْضَبِ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠]، والجاهل بالحق أحق باسم الضلال، ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧] اهـ.

والذي لا يعمل بعلمه قد أقيمت عليه الحجة، فما عذره أمام الله ﷻ كما في الحديث: «والقرآن حجة لك أو عليك»، حجة لك إذا عملت به، وحجة عليك إن هجرته ولم تعمل به، والذي لا يعمل بعلمه من أوائل المعذبين. وكما قيل:

وعالم بعلمه لم يعملن معذب قبل عباد الوثن

واستدل على هذا القول بحديث أبي هريرة عند مسلم: «أول ما يُقضى يوم القيامة بين العباد ثلاثة»، وفي لفظ النسائي «أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة، وذكر منهم: ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه، فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب» قال أبو عبد الرحمن: ولم أفهم تحب كما أردت «أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكن ليقال إنه جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، فألقي في النار».

وقد علم السلف رضوان الله عليهم أن العمل بالعلم من أسباب السيادة والريادة، ومن أسباب النصر والتمكين.

فهاك بكر بن حماد كما في "جامع بيان العلم" رقم (١٢١٧): يقول في إمام أهل السنة أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني:

وإذا امرؤ عملت يداه بعلمه نودي عظيما في السماء مسودا

وروي عن عبد الله بن مسعود قوله: إن الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه، ومن أخطأ قوله فعله، فإنما يوبخ نفسه، أخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١٢٣٣).
وقد تقدم أن الدعوة بالعمل أبلغ من الدعوة بالقول، قال المأمون: نحن إلى أن نوعظ بالأعمال أحوج منا إلى أن نوعظ بالأقوال.

وقد تقدم ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وإنما تكون تقوى العبد بقدر علمه، فكلما زاد علمه زاد تقواه، كما في الحديث: «إني أتقاكم لله»، قال أبو الدرداء: لا تكون تقيا حتى تكون عالما، ولا تكون بالعلم جميلا حتى تكون به عاملا، أخرجه الخطيب في "اقتضاء العلم العمل" (١٦-١٧)، وذكر ابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (١٢٤٢): عن سفيان الثوري أنه كان يتمثل بقول الشاعر سائق البربري:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة عليك ولم تعذر بما أنت جاهله

فإن كنت قد أتيت علما فإنما يصدق قول المرء ما هو فاعله

وقال أيضا رقم (١٢٤٤): وأنشد الرياشي رحمته الله:

ما من روى أدبا فلم يعمل به ويكف عن زيغ الهوى بأديب

حتى يكون بما تعلم عاملا من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تجدي إصابة عالم أعماله أعمال غير مصيب
قال ابن الجوزي رحمته الله في "صيد الخاطر" (٣٨٥): (رأيت أكثر العلماء
مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده).

وقال: (وليس العلم صور الألفاظ؛ إنما المقصود فهم المراد منه، وذاك
يورث الخشية والخوف، ويرى المنة للمنعم بالعلم، وقوة الحججة له على المتعلم.
نسأل الله عز وجل يقظة تفهمنا المقصود، وتعرفنا المعبود، ونعوذ بالله من
سبيل رعا يتسمون بالعلماء، لا ينهاتهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون،
ويتكبرون على الناس بما لا يعملون، ويأخذون عرض الأدنى، وقد نهوا عما
يأخذون، غلبتهم طباعهم، وما راضتهم علومهم التي يدرسون، فهم أخس
حالاً من العوام الذين يجهلون، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ
غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] اهـ.

وكلما كان الداعي إلى الله عز وجل عاملا بعلمه انتفع الناس بمواعظه
والعكس.

قال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل زالت موعظته من القلوب كما
يزل القطر عن الصفاء.

وقال زياد بن أبي سفيان: إذا خرج الكلام من القلب يقرع القلب،
وكلام اللسان يمر على القلب سفاحا.

والداعي الذي لم يعمل بعلمه يزهّد الناس في دعوته، ورحم الله ابن القيم إذ يقول في "الفوائد" (٢٤٩): (علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق) اهـ.

وقد بين هذه الأوصاف رسول الله ﷺ كما في حديث حذيفة عند الشيخين: «دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها»، قال يا رسول الله: صفهم لنا، قال: «قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا».

وما قلناه من أن العمل بالعلم من أسباب نصرّة الدعوة الحقّة، عليه العلماء سابقا ولاحقا كما تقدمت النقول.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول في "مدارج السالكين" (١/٤٤٦): (النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به) اهـ. وقال الزهري: لا يرضين الناس قول عالم لا يعمل ولا عامل لا يعلم، أخرج الخطيب في "اقتضاء العلم العمل" (١٤).

وقال أيضا (١/٤٤٧): (وقال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه) اهـ.

ويدل على كل ما تقدم حديث النواس بن سمعان عند مسلم قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة، وآل عمران»، وضرب لها رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنها غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما»، والله المستعان وعليه التكلان، وهو حسبي ونعم الوكيل.

والقسم الثاني: المغضوب عليهم؛ وهم اليهود على الإطلاق ويدخل فيهم كل من عرف الحق وخالفه عمدا وقصدا فهو معرض لغضب الله ﷻ عليه، ومن غضب الله عليه انتقم منه، وربما كان ذلك في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٥٥] [الزخرف: ٥٥]، وأعظم مسببات غضب الرب تعالى (الشرك بالله)، فإنه الذنب العظيم الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ومن مغضبات الله ﷻ البدعة ومخالفة هدي رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكَ﴾

الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ
السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ [الفتح: ٦]،
ومنها قتل النفس المحرمة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا
فَجَزَاءُُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا
عَظِيمًا ﴾ ﴿١٣﴾ [النساء: ٩٣]، ومنها موالاتة الكفار والسعي انشراح صدورهم
بالكفر وغيره من العظائم، قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ
غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، ومنها الكذب لاسيما فيما يتعلق بالأعراض،
قال تعالى: ﴿ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿٩﴾ [النور: ٩]، ومنها
الجدال بالباطل قال الله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ،
مُجَّهِّمٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿١٦﴾ [الشورى:
١٦]، ومنها الطغيان، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ
عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ ﴿٨١﴾ [طه: ٨١]، وما ترى من أسباب زوال الأمم وتدمير
الشعوب وتغير الأحوال إلا لغضب الله ﷻ على من أعرض عن طاعته
وتوحيده واتباع سنة نبيه ﷺ وحاربه بالشرك والتنديد وغير ذلك، وقد أغرق
الله قوم نوح بالطوفان، وأهلك قوم عاد بالريح العاتية، وقوم ثمود بالصيحة،
وقوم لوط بالخسف، وقوم مدين بالظلة، وقوم فرعون بالإغراق في اليم،

وقريش بالقتل يوم بدر لما غضب الله عليهم؛ بسبب ما هم عليه من البغي والكبر والشرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن ذلك ما دمر الله به على قوم سبأ لما أعرضوا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧]، ولا يغير الله ~~عقل~~ حال العبد إلى الخير حتى يغير ما بنفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والقسم الثالث: الضالون، وهم عند الإطلاق النصارى، ويدخل فيهم كل من ترك العلم وزهد فيه، ولهذا السبب يرتكب البدع والمحدثات، ومن ضلال هذه الأمة الخوارج الذين يأخذون ظاهرا من القرآن والسنة -زعموا- بعيدا عن الفهم الصحيح، ويقع منهم ما يقع من القتل والقتال في المسلمين، وهكذا القول في كل مسألة، تجد الناس ثلاثة أصناف: أصحاب غلو، وجفاء، وهدى مستقيم، فالزم الهدى تفلح أيها المسلم ولن تجده إلا في الكتاب والسنة الصحيحة، بعيدا عن الأقيسة الفاسدة والآراء الكاسدة وبالله التوفيق.

والناس في هذه الأقسام بين مستقل ومستكثر، فعلى المسلم أن يبذل قصارى جهده في أن يكون من المنعم عليهم في الدارين، فكلما زاد علمه وعمله به؛ كان إلى المنعم عليهم أقرب، وكلما زاد جهله وإعراضه؛ كان إلى الضلال أقرب، وكلما علم وأعرض عن العمل؛ كان إلى المغضوب عليهم أقرب.

وفي الآية تحريم مشابهة الكفار سواء كان ذلك في معتقداتهم أو أفعالهم،

فمن تشبه بقوم فهو منهم، وذلك مأخوذ من قوله: ﴿غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا أَضْآلِينَ﴾، فإن التشبه بمن غضب الله عليه والضالين يكون من أسباب حصول الضلال للعبد والغضب عليه من الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢]، فليحذر العبد على نفسه لاسيما في زمننا هذا، إذ قد ظهر التشبه بهم بالأقوال والأفعال والمعتقدات إلا من رحم الله تعالى.

قال شيخ الإسلام في "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم": (ومع أن الله قد حذرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله، مما سبق في علمه، حيث قال فيما خرجاه في الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة

حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن».

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون، شبرا بشبر، وذراعا بذراع»، ف قيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا أولئك؟».

فأخبر أنه سيكون في أمتة مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم، وهم الأعاجم.

وقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخبارا عن جميع الأمة، بل قد تواتر عنه: أنه قال «لا تزال طائفة من أمتة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة».

وأخبر صلى الله عليه وسلم: «أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة وأن الله لا يزال يغرّس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته».

فعلم بخبره الصدق أنه في أمتة قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضاً، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضاً، بل قد يكون الانحراف كفراً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون معصية وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلاً) اهـ.

وقد تنوعت مشابهة الكفار، فتابعهم كثير من الناس في الغلو؛ فغلو في قبور من يسمونهم بالأولياء حتى صرفوا لها العبادات، وبنوا عليها القباب تشبها بالنصارى ومن إليهم، ففي الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، أن أم حبيبة، وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

وشابهوهم في أعيادهم؛ فأحدثوا الموالد وغير ذلك، وفي حديث ثابت بن الضحاك: «هل كان فيها عيد من أعيادهم»، نهيًا عن التشبه بهم في ذلك، وشابهوهم في ملابسهم وصح عن رسول الله ﷺ عند مسلم: عن عبد الله بن عمرو، قال: رأى النبي ﷺ علي ثوبين معصفرين، فقال: «أأمك أمرتك بهذا؟» قلت: أغسلهما، قال: «بل أحرقهما».

وشابهوهم في لغتهم، قال شيخ الإسلام في "اقتضاء الصراط المستقيم" نقلاً عن الشافعي رحمته الله: (ولهذا نقول: ينبغي لكل أحد يقدر على تعلم العربية أن يتعلمها؛ لأنه اللسان الأولى بأن يكون مرغوباً فيه من غير أن يحرم على أحد أن ينطق بأعجمية، فقد كره الشافعي لمن يعرف العربية، أن يسمي بغيرها، وأن

يتكلم بها خالطا لها بالعجمية، وهذا الذي قاله الأئمة مأثور عن الصحابة والتابعين).

ومن أعظم ما شابهوهم فيه الأخذ بالديموقراطية؛ التي هي حكم الشعب نفسه بنفسه، وفيها إزاحة لدين الله ﷻ من حياة الإنسان، فهي دعوى إلى المساواة بين الرجال والنساء، والمؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، وفيها إزاحة لحكم الله ﷻ وتقديم حكم الشعب، وفيه كل بلاء، على ما بيته في كتابي: "الأدلة الرضوية في حكم الديموقراطية".

ومنه التحزبات التي فرقت الأمة إلى طرق شتى، لا يجتمعون على قول، والسبب أنهم تركوا شرع الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وأخذوا بزبالة أفكار الأمم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، والحمد لله.

الخاتمة

وبهذا أكون قد انتهيت مما أردت تسطيره هنا، وإلا فالكلام عليها يطول لما تقدم من جمعها للجمل العظيمة في الدين.

قال ابن كثير رحمته الله: (اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العلیا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبیده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل؛ لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد

الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجْدَ لَهُ. وَإِلَّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَكَلَاهِدِي لَهُ. وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحا في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم»، يعني في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فليس -بحمد الله- لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقا بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد) اهـ.

وهذه الآية دلت بمفهومها على إثبات الرسل؛ فإن المغضوب عليهم والضالون هم المخالفون للرسل، والمنعم عليهم أصحاب الصراط المستقيم هم الرسل والأنبياء ومن سار على سيرهم كما تقدم، والإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان الستة.

قال ابن أبي العز رحمته الله في "شرح الطحاوية": (وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة؛ لأنه لم يأت في عددهم نص، وقد قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَاطِيعُوا الرُّسُولَ فَإِنَّ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾

[الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد ﷺ، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً (اهـ).

وتدل كذلك بمفهومها على الإيمان بالكتب المنزلة على رسل الله وأنبيائه وهي كثيرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال ابن أبي العز في "شرح الطحاوية": (وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزيور، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماؤها وعددها إلا الله تعالى).

وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب، فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء، قال تعالى: ﴿قُلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿الْمَ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١-٤]،

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها، وأنها نزلت من عنده، وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [٤١] لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٤٢] [فصلت: ٤١ - ٤٢]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦]، ﴿بَتَّأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ رَسُولَهُ وَالنُّورِ الَّذِي أُنزِلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن اهـ.

فتضمنت السورة البيان والإشارة إلى أركان الإيذان الستة، وبالله

التوفيق والحمد لله.

القول في: آمين

قال ابن كثير رحمته الله: (يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين مثل:

﴿يَسَّ ۝١﴾ [يس: ١]، ويقال: آمين، بالقصر أيضا مثل: يمين، ومعناه: اللهم

استجب، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذي، عن

وائل بن حجر، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

فقال: «آمين»، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذي: هذا

حديث حسن، وروي عن علي، وابن مسعود وغيرهم.

وعن أبي هريرة، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول، رواه أبو

داود، وابن ماجه، وزاد: «يرتج بها المسجد»، والدارقطني وقال: هذا إسناد

حسن.

وعن بلال أنه قال: يا رسول الله، لا تسبقني بآمين، رواه أبو داود، ونقل

أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنها شدة الميم من «آمين»، مثل:

﴿وَلَاءَ آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢].

قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في

حق المصلي، وسواء كان منفردا أو إماما أو مأموما، وفي جميع الأحوال، لما جاء

في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه»، ولمسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه».

قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل: في الإجابة، وقيل: في صفة الإخلاص، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعا: «إذا قال، يعني الإمام: ﴿وَلَا أَلْمَازِينَ﴾، فقولوا: آمين، يجبكم الله»، وقال جوير، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال: «رب افعل».

وقال الجوهري: (معنى آمين: كذلك فليكن، وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا، وقال الأكثرون: معناه: اللهم استجب لنا، وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان: أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروي عن ابن عباس مرفوعا ولا يصح، قاله أبو بكر بن العربي المالكي، وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «وإذا قال، يعني الإمام: ﴿وَلَا أَلْمَازِينَ﴾، فقولوا: آمين»، الحديث.

واستأنسوا -أيضا- بحديث أبي موسى: «وإذا قرأ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾،
فقولوا: آمين».

وقد قدمنا في المتفق عليه: «إذا أمن الإمام فأمنوا»، وأنه عليه الصلاة
والسلام كان يؤمن إذا قرأ، ﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وقد اختلف
أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن
نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أمن الإمام جهراً، فالجديد أنه لا
يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار
فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة، والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب الإمام أحمد
بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما تقدم: «حتى يرتج المسجد».

ولنا قول آخر ثالث: إنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم، لأنهم
يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد،
والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
ذكرت عنده اليهود، فقال: «إنهم لن يحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة
التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها،
وعلى قولنا خلف الإمام: آمين»، ورواه ابن ماجه، ولفظه: «ما حسدتكم اليهود
على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين»، وله عن ابن عباس أن رسول الله

قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول: آمين، فأكثرُوا من قول: آمين»، وفي إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف، اهـ.

بهذا أكون قد ذكرت المهمات عن هذه السورة العظيمة التي يحفظها كل مسلم، ويقرؤها في كل صلاة، ويحتاج إلى فهمها، وتوسعت فيها لهذا المقصد، فالله أسأل العون والسداد والقبول.

مكة المكرمة - حرسها الله - الشرايع مخطط سبعة

الثلاثاء ٩ ربيع الثاني ١٤٣٧

وكانت المراجعة في منتصف ذي القعدة ١٤٣٧